A
282
R971

نحن
وروما والفاتيكان

للدكتور أسد رستم





بِبَرَكَتِهِ وَتشجيعِهِ وَعَوْنِهِ

كيريوس إيليّا متروبوليت بيروت وتوابعها

ايليا الكلي الطهر والجزيـل الاحترام المقام من الله مطراناً على
بيروت وتوابعهـا المتقدم في الكرامة والمتصدر في الرئاسة
على كل فينيقية الساحلية أبونا وسيدنا لتكن سنوه عديـدة

كلمة المؤلف

نشكر الله ان الحواجز التي قامت بيننا نحن الارثوذكسيين وبين اخواننا في المسيح أبناء الكنائس الغربية لم تبلغ عنان السماء واننا لا نزال نرغب في الاتحاد وندعو اليه ونصلي لاجله في كل يوم .

ونشكر الله انه هيأ للكنيسة في هـذا القرن العشرين قادة أتقياء ملأت قلوبهم محبة المسيح وأنار الروح عقولهم فأثاروا جواً من الوعي والمحبة والاستعداد لتبادل الرأي . وفي طليعة هؤلاء قداسة البابا يوحنا الثالث والعشرون وقداسة البطريرك المسكوني اثيناغوراس الاول . والاثنان من أفذاذ الرجال وأطهر الطاهرين . وقد خبرا العـالم المسيحي خبرة واسعة بما قاما به من واجبات روحية عالمية قبل وصولهما الى السدتين الرسوليتين .

وهذا عرض تاريخي علمي واقعي لاسباب الخلاف والتباعد بين كنائس الشرق وكنيسة الغرب . والرجوع الى الماضي ضروري لفهم الحاضر واعداد العدة للمستقبل واطلاع جمهور المؤمنين على حقيقة ما جرى ضروري لخلق رأي عام منور يوجب الاعتدال ويدفع بالرؤساء الى الامام . وليس من الحكمة بشيء ان نسكت عن بعض الماضي وان نلطف غـيره تلطيفاً . فالداء شديد الوطأة وتشخيصه تشخيصاً علمياً صحيحاً ضروري لوصف الدواء .

عن الشوير ورأس بيروت
في ١٥ آب سنة ١٩٥٩

« في ميلادك حفظت البتولية وصنتها . وفي رقادك ما أهملت العالم وتركته يا والدة الاله . لانك انتقلت الى الحياة بما انك ام الحياة . فبتوسلاتك أنقذي من الموت نفوسنا » .

جسد واحد لروح واحد

بدأ المخلص نفسه تنظيم كنيسته فوجه دعوات شخصية الى الاثني عشر الى اندراوس ويوحنا اولا ثم الى سمعان اخي اندراوس الذي دعاه منذ اللحظة الاولى سمعان بطرس اي الصخر بدلا من سمعان ابن يونا اي ابن الوناء والضعف. ثم وجد فيليبوس ووجد هذا نتنائيل وهلم جرا. وقدسهم بحق الله وقدس المؤمنين به عن كلامهم ليكونوا واحداً. وأعطاهم الذي اعطاه الله له ونفخ فيهم وقال خذوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم (يوحنا ١٧ و٢٠).

وساوى السيد بينهم ولم يسلط احداً على غيره. فانه لما دنت منه ام ابني زبدي مع ابنيها ساجدة وسألت ان يجلس ابناها احدهما عن يمينه والآخر عن يساره غضب العشرة الآخرون (متى ٢٠) فدعاهم يسوع وقال لهم: « قد علمتم ان أراخنة الامم يسودونهم وعظماءهم يتسلطون عليهم. واما أنتم فلا يكن فيكم هكذا. ولكن من اراد ان يكون فيكم كبيراً فليكن لكم عبداً ».

ولم يميز الرب بطرس. ولم يوجه اليه دعوة مختلفة. ويتذرع من يقول بتمييز بطرس بكلام بولس في رسالته الاولى الى أهل كورنثوس (١٥ : ٥): « قد سلمت اليكم ما تسلمت انا نفسي ان المسيح قد مات من أجل خطايانا وانه قبر وانه قام في اليوم الثالث وانه تراءى لكيفا ثم للاثني عشر ثم لاكثر من خمس مئة أخ معاً ثم تراءى ليعقوب ثم لجميع الرسل ». ويتذرع هؤلاء ايضاً بما جاء في انجيل لوقا (٢٤ : ٣٤) من ان الاحد عشر والمجتمعين معهم قالوا: « لقد نهض الرب حقاً وظهر لسمعان ». يتذرع هؤلاء بتقديم ذكر سمعان على ذكر غيره فيرون في هذا التقديم تميزاً ودعوة خصوصية للتبشير. ونحن نقول ان في هذا خروجاً على ابسط قواعد التفسير. فالانجيل بالانجيل اولا والرسائل بالرسائل أولا والانجيل والرسائل بالانجيل والرسائل أولا. فما أجمل في مكان

فقد يفسر في موضع آخر . وما اختصر في مكان فقد يبسط في موضع آخر . ولا يجوز افتراض التناقض في كلام السيد . فاذا قلنا بتمييز بطرس على أساس ما جاءَ في لوقا وعلى أساس قول بولس كما ورد اعلاه فماذا نقول في تقديم ذكر التلاميذ على ذكر بطرس في انجيل مرقس (١٦ : ٧) : « فاذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس » وليس في توجيه السؤال ثلاثة الى سمعان وحده (يوحنا ٢١ : ١٥ـ١٨) : « يا سمعان ابن يونا أتحبني ؟ » تمييزاً له بل قد يكون هذا الكلام عتاباً بالانكار وتشجيعاً وتثبيتاً لتلميذ عرف بالاندفاع الشديد وبالتراجع السريع ايضاً . وامبروسيوس واوغوسطينوس وغيرهما من الآباء الأولين ربطوا تثليث السؤال بتثليث الانكار (١) !

ولم يبنِ السيد كنيسته على بطرس (متى ١٦) وانما بناها على صخرة الايمان على قول بطرس : « أنت المسيح ابن الله الحي » . فليس في أدب القرنين الأول والثاني ما ينم عن اهتمام الآباء بهذه الآية اهتمام رومة لها في ما بعد . وأقدم الاشارات الواضحة الى هذه الآية ما جاءَ في الفصل المئة من ذيالوغوس يوستينوس مع تريفون في حوالي السنة ١٣٣ . وهنالك اشارة اخرى في رسائل اقليمس المنتحلة . ويرى العلامة ماسو اشارتين في رسائل اغناطيوس المتوشح بالله وفي مزامير سليمان وتسابيحه التي تعزى الى برديصان (٢) . وهو قول ضعيف . وليس في هذه الاشارات كلها ما يربط تفكير الآباء الأولين بنظم الكنيسة او مقر السلطة العليا فيها (٣) . ويعالج اوريجانس هذه الآية فيفرق بين ظاهر النص وباطنه فيرى النص في ظاهره موجهاً الى بطرس وفي حقيقته الى أي شخص تشابه حالته حالة بطرس (٤) . وتدخل ترتليانوس (+ ٢٢٠) في النزاع بين اسقفي رومة كليستوس وايبوليتوس فرفض ان يكون الربط والحل الواردان في متى (١٦ : ١٩) منوطين بالأساقفة المتأخرين سواء أكانوا من أساقفة رومة او

1) *Bernard, J., Commentary of the Gospel according to Saint John, (1928), 690.*
2) *Massaux, E., Influence de l'Evangile de Saint Mathieu sur la Lit. Chrét. avant Saint Irénée, (1950).*
3) *Cullmann, O., Saint Pierre, 144.*
4) *Origène, Ad Mat., 16 : 18.*

سائر الأساقفة (١) . ولم يشاطر كبريانوس (+ ٢٥٨) ترتليانوس رأيه في مسألة الحل والربط . ولكنه لم يرَ في الآية موضوع هذا البحث مبرراً لادعاء اسقف رومة بالتقدم على سواه . فجميع الأساقفة في نظره خلفاء بطرس وما وجه الى بطرس وجه اليهم جميعاً . والسيد اذ قال لبطرس أنت صخر أمر بوحدة الكنيسة وعدم تجزئتها (٢) . وشارك فرميليانوس اسقف قيصرية قبدوقية كبريانوس رأيه في عدم تقدم اسقف رومة وعدم تفوقه استناداً للآية موضوع البحث (٣) . ولم يرَ الذهبي الفم (+ ٤٠٧) في الصخرة سوى صخرة الايمان (٤) . ورأى اوغوسطينوس (+ ٤٣٠) ان الصخرة التي ستبنى عليها الكنيسة هي المسيح المخلص نفسه (٥) . وقل الأمر نفسه عن كيرلس الاسكندري (+ ٤٤٤) (٦) .

وموقف الكنيسة الارثوذكسية الجامعة هو موقف هؤلاء الآباء القديسين الأولين . فقول السيد : « وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي » يعني على الاعتراف مع بطرس وسائر الرسل ان المسيح هو ابن الله الحي . فكل من أراد ان يصير مسيحياً يجب ان يشهد قبل كل شيء وان يبني ايمانه على الصخرة التي هي : « اؤمن ان يسوع المسيح هو ابن الله الحي » . ولذلك طلب المسيح نفسه الى الأعمى الايمان ببنوته الطبيعية لله ولم يفتكر برئاسة بطرس بل قال ان الذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد . وهكذا أقر بولس في المجامع في دمشق بعد دخوله في النصرانية . والخصي الحبشي قال لفيليبوس قبل اعتماده : « اؤمن ان يسوع المسيح ابن الله » فعمده فيليبوس فخلص دون ان يبني على بطرس . ومثله كل من آمن بالاجمال . وهكذا تفعل كنيستنا الجامعة المقدسة فلا تضع أساساً آخر « غير الموضوع الذي هو يسوع المسيح » (الاولى الى كورنثوس ٣ : ١١) . وكنيسة الغرب نفسها لم تلجأ الى هذه الآية لتدعيم رأيها في

1) *Tertullianus, De Pudicitia, XXI.*
2) *De Cath. Ecc. Unit., IV, V.*
3) *Cyprianus, Let., 75, 17.*
4) *Chapman, J., Early Papacy, 72 ff.*
5) *Retractiones, I, 21.*
6) *Cullmann, O., op. cit., 146.*

سلطة اسقف رومة قبل العصور الوسطى أي قبل النزاع بين رومة القديمة ورومة الجديدة (١) .

ثم ارتفع السيد الى السماء فعاد الرسل الى العلّيـة فاقترح أحدهم سمعان بطرس، وكان شديد الغيرة كثير الاندفاع ، ان يُعيَّن واحد محلّ الاسخريوطي. فقدّم المجتمعون اثنين وصلوا وألقوا القرعـة بينهما فوقعت على متيا فأحصي مع الرسل الأحد عشر . فكان عملهم أول عمل تنظيمي كنائسي قاموا به بعد الصعود . ودلّوا بالطريقة التي أتبعوها في انتقاء متيا على انه لم يكن بينهم سيد يُعيِّن تعييناً او عظيم يتسلّط .

وحلّ يوم الخمسين وظهرت الألسنة وأستقرت على كل واحد منهم فامتلأوا كلهم من الروح القدس وطفقوا يتكلمون بلغات اخرى كما آتاهم الروح ان ينطقوا فدُهش الجمهور فاندفع بطرس وخطب خطبتـه الشهيرة فانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس . وكانوا معاً وكان كل شيء مشتركاً بينهم وواظبوا على تعليم الرسل وعلى الشركة في كسر الخبز وعلى الصلوات .

وتكاثر التلاميذ فحدث تذمر فجوبه الرسل بعمل تنظيمي ثان . فدعوا جمهور التلاميذ وقالوا اختاروا أيها الاخوة سبعة منكم يشهد لهم بالفضل فنقيمهم على الخدمة اليومية وننصرف نحن لكلمة الله . فاختار جمهور المؤمنين سبعـة من أهـل الفضل والتقوى وقدموهم للرسـل . فصلّى هؤلاء ووضعوا عليهم الأيـدي وجعلوا منهم أول الشمامسة . وقضى تكاثر المؤمنين ايضـاً الى انتقاء شيوخ كهنة يعاونون الرسل في خدمة كلمـة الله وفي الادارة ايضاً . فلم يعين بطرس احداً منهم تعييناً وحدث اضطهاد على الكنيسة في اوروشليم . وكان ما كان من أمر اسطفانوس الشهيد فتبدد المؤمنون في اليهودية والسامرة وانطاكية وقبرص وغيرها وحملوا الرسالة الى حيثما حلوا ، فأرسل « الرسل » بطرس الى السامرة . ثم انطلق الرسل للكرز والتبشير فأقاموا أخا الرب يعقوب اسقفـاً عـلى « الكنيسة » في اوروشليم وخصوا المـدن ولا سيا عواصم الولايات

1) *Cullmann, O. op. cit. 146.*

بعنايتهم فأنشأوا فيهـا الكنائس الاولى . ويلاحظ هنـا ان كنائس أفسس وكورنثوس وتسالونيكية التي وجـه اليها بولس رسائله كانت كنائس عواصم الولايات وان رسالة بطرس الاولى موجهة الى كنائس غلاطية والبونط وقبذوقية وآسية وبيثينية وان بولس يستهل رسالته الثانيـة الى أهـل كورنثوس بالعبارة : الى كنيسة الله التي في كورنثوس « مع جميـع القديسين في أكائية كلهـا » . وهكذا فانه يجوز القـول ان الرسل ، او هامتي الرسل ، جعلوا منذ البـدء توزيع الكنائس يتفق وتقسيمات الولايات الرومانية المدنيـة وانهم ربطوا المؤمنين في كل ولاية باسقف عاصمة الولاية التي انتموا اليها . ويجوز القول ايضاً ان الرسل ظلوا على صلة مباشرة بالكنائس التي أسسوها أما بزياراتهم الشخصية او بايفاد رسـل من قبلهم اليها وتوجيه الرسائل بواسطة هؤلاء . ويستدل من أخبار القرن الثاني ان أساقفة الكنائس في كل ولاية من ولايات الدولة بدأوا يجتمعون للتداول والتشاور في الامور الملحة في عاصمة الولاية وانهم في القرن الثالث لمسوا الفائدة من هـذه الاجتماعات فجعلوها قاعـدة يتمشون بموجبها فيجتمعون مرة في السنة على أقل تقدير . وأدى هذا كله الى ازدياد في نفوذ أساقفـة العواصم وأمست موافقتهم ضرورية في سيامة أساقفة الولاية . ومن هنا قول الآباء في المجمع المسكوني الأول في نيقية في السنة ٣٢٥ في القانون الرابع ان الاسقف يجب ان يقام من قبل جميع الذين في الأبرشية وانه اذا تعذر ذلك يجتمع ثلاثة معاً ويشترك الغائبون كتابة وان المصادقة على ما يجري تعطى في كل ولاية لاسقف العاصمة فيها . ومن هنا القول ايضاً في القانون الخامس انه يستحسن ان يعقـد مجامع في كل ولاية مرتين في السنة لفحص المسائل الطارئة بحضور جميع الأساقفة . وهـذا الربط بين حدود الولاية المدنية وحدود السلطة الروحية ظاهر في الاجراءات التي اتخذها الأمبراطور ولنس للحد من نفوذ باسيليوس الكبـير القديس الشهير . فالأمبراطور أمر بجعل ولاية قبدوقية ولايتين لافساح المجـال لاسقف آخر يشاطر الاسقف القديس السلطة الروحية في الولاية .

ولكن تقسيم الكنائس بموجب تقسيم الولايات لم يؤثر في شعور الرعـاة

والرعايا بوحدة « الكنيسة » . فالمؤمنون ما فتئوا منذ اللحظـة الاولى يعيشون ليسوع ويموتون له (رومية ١٤:٨) وينتظمون كنيسة واحـدة هي جسده وهو رأسها (كولوسي ١:١٨) ويترنمون مع بولس أينما كانوا وحيثما حلوا (كورنثوس اولى ١٢:١٢_١٤) قائلين : « لأنه كما ان الجسد واحد وله أعضاء كثيرة وجميع أعضاء الجسد مع كونها كثيرة انما هي جسد واحد كذلك المسيح ايضاً . فاننا جميعاً اعتمدنا بروح واحد لجسد واحـد يهوداً كنا أم يونانيين عبيداً أم أحراراً وجميعنا سقينا روحاً واحداً » .

وتميزت بعض كنائس الكنيسة في هـذا الدور الأول على سواها بميزات معينة فأفضت عليها شيئاً من النفوذ لم يكن لغيرها . فالسيـد نفسه أسس كنيسة اورشليم وجميع الرسل عملوا فيها ويعقوب اخو الرب تولى امورها في عهـد الرسل وفيها عقد اول المجامع . ولا تزال هي وحدها قبلة أنظار المؤمنين في جميع أقطار العالم . ومما تجدر الاشـارة اليه ان افسابيوس المؤرخ اسقف قيصرية فلسطين (+ ٣٤٠) ظل يعتبرها « الكنيسة » منذ ظهورها حتى أيامه . فاسقفها في نظره كان اسقف « الكنيسة » . أما أساقفة انطاكية والاسكندرية وروما فانهم كانوا أساقفـة « كنيسة الانطاكيين » او « كنيسة الاسكندريين » او « كنيسة الرومانيين » . ويلاحظ هنا ان الأب غوستاف باردي أساءَ الترجمـة فجعل افسابيوس يقول ان فلاناً أصبح اسقف كنيسة اورشليم بدلا من القول مع افسابيوس ان فلاناً كان اسقفاً « على الكنيسة في اورشليم » (١) .

وكنيسة انطاكية كانت كنيسة عاصمة ولاية الشرق وأكبر مدنه وأهمها . فكان من الطبيعي جداً ان يتولى الاسقفية فيها كبار الرجال وان يستعين غيرهم من أساقفة الولاية بهم في حل مشاكلهم ومشاكل المؤمنين مع الحكومة والحكام. وكان من الطبيعي ايضاً ان تزداد أهمية هذه الكنيسة بعد خراب اورشليم وتشتت أبنائها في السنة ٧٠ وان تصبح مركزاً رئيسياً لحركة التبشير ونقطـة انطلاقها :

1) Bardy, G., (*Sources Chrétiennes*) *Eusèbe de Césarée*, I. 40, 49, 85, 95, 96, 125, 143, 144, 164, etc.

وكانت انطاكية ايضاً مركزاً ثقافياً هاماً فاتجهت أنظار المؤمنين في ولاية الشرق الى رعاة انطاكية ومن شـد أزرهم للدفاع عن الدين القويم . وهل ننسى ان بطرس وبولس وبرنابا اشتركوا في تأسيس كنيستها وان الاخوة فيهـا ساهموا مساهـمة فعالة في الانفاق من اموالهم لاجل يسوع ومن أحب وان المسيحيين دعوا مسيحيين اولا في انطاكية .

ومثل هـذا يصح الى حدّ بعيد عن كنيسة الاسكندرية . فالاسكندرية كانت لا تزال اكبر مدن الشرق كله وأوسعها متجراً وأسبقها علماً وثقافـة . وكانت جاليتها اليهودية اهم جاليات اليهود خارج فلسطين ولها كلمتها بينهم . فسبقت كنيسة الاسكندرية سائر كنائس الكنيسة الى التذرع بالعلـم والفلسفة والعكف على الاسفار المقدسة والدفاع عن العقيدة فأصبحت هي المعلمة الاولى .

واذا كانت انطاكية عاصمة ولاية الشرق وافسس عاصمة آسية الساحلية والاسكندرية عاصمة مصر والقيروان فان رومة كانت في هذه القرون الاولى عاصمة الامبراطورية بأسرها واليها تشد الرحال وفيهـا تفصل المشاكل وعنها تصدر الاحكام . وأمسى اسقفها ، والحالة هـذه ، ممثل الكنيسة الجامعة امام السلطات المدنية العليا يدافع عن حقوق الكنيسة جمعاء ويتحمل مسؤولية اقوال المسيحيين وافعالهم في جميع ارجاء الامبراطورية . وجذبت عاصمة الدولة كبار المفكرين المسيحيين كما جذبت بطرس وبولس وعلموا فيها فجعلوا منها مركزاً عقائدياً يشابـه مركز الاسكندرية . واشتهر المؤمنون فيها بغيرتهم وعطائهم فشملوا كثيرين بعطفهم ومحبتهم الحقيقية في اقصى ولايات الدولة كمـا يشهد بذلك افسابيوس المؤرخ وغيره .

ولكن ليس في المراجع الاولية مـا يثبت قول علماء الكثلكة بسلطة خصوصية تمتع بها اساقفة رومة وفرضوها على سائر الاساقفة . فلو عدنا معهم الى النصوص التي يتذرعون بهـا لتدعيم رأيهم ، الى رسائل اغناطيوس المتوشح بالله ومصنف ايريناوس ونَصَب أبركيوس، لوجدناها غامضة لا تلزمنا بأي استنتاج منطقي يعطي رومة حق السلطة على جميع كنائس الكنيسة .

وجل ما يجوز قوله هو ان بعض اساقفة رومة في هـــذه القرون الاولى أحسوا بواجب رعائي تجاه الكنيسة الجامعـــة . فحاول احدهم فيكتوريوس (١٨٩ ـ ١٩٩) ان يفرض رأي رومة في كيفية ممارسة عيد الفصح على اساقفة آسية الصغرى وغيرهم من اساقفة الشرق . فاحتج بوليكراتس اسقف ازمير على تدخل فيكتوريوس واستند في احتجاجه الى العرف الرسولي في آسية وأيـــده في احتجاجه مجمع محلي ضمّ خمسين اسقفاً . وهبّ اسطفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) بعد فيكتوريوس يوجب على اساقفـــة افريقية وآسية والشرق الاعتراف بعمودية التائبين ويهدد بالقطع . فاحتج كبريانوس اسقف قرطاجة وفرميليانوس اسقف قيصرية آسية على تدخل اسطفانوس وقالا بتساوي الرسل وتساوي الاساقفـــة . ولا بد من الاشارة هنا الى ان العبارة « الاولية تعطى لبطرس » والعبارة « الذي يهجر كرسي بطرس الذي عليه اسست الكنيسة » الواردتين في رسالة كبريانوس عن وحدة الكنيسة ساقطتان من بعض النسخ القديمة وان العلماء الباحثين ، وبينهم الكاثوليكي وغيره ، يعتبرون العبارتين مدسوستين دساً في عهد متأخر .

وظلت الكنائس كنيسة واحدة على الرغم من هـذا الاختلاف في الرأي لأن محبة المسيح شملتها ونار الاضطهاد صهرتهـــا فخرجت نقية طاهرة ووقفت جميعها وقفات ثابتة في الدفاع عن استقامة الرأي والرد على الهراطقة والمبتدعين . وكان اعظم هؤلاء واشدهم خطراً المتهودون والمشبهون والآريوسيون .

ولبّت جميع هـــذه الكنائس دعوة قسطنطين الامبراطور فاجتمعت في السنة ٣٢٥ في نيقية برعايتـــه واجمعت على دستور ايمـــان واحد لا نزال جميعنا نقول به حتى ساعتنا هذه . ونظر الاساقفة المجتمعون في مسائل اخرى كان بينها أمر سلطة الاساقفـــة واتساع رقعتها فجـــاء القانون السادس هكذا : « فلتحفظ العادات القديمة التي في مصر وليبيـــة وخمس المدن بان تكون سلطة اسقف الاسكندرية على هذه جميعها كما ان اسقف رومة له هذه العادة ايضاً . وكذلك فليحفظ التقدم للكنائس في انطاكيـــة وفي سائر الابرشيات . وبالاجمال انـــه لأمر واضح ان من يصير اسقفاً بدون رأي المتربوليت فقد حدد المجمع العظيم انه لا ينبغي ان يصير اسقفاً . واما اذا خالف اثنان او ثلاثة لخصام

شخصي رأي الجميع العـــام المطابق والمناسب للقانون الكنائسي فليعمل بأكثرية الآراء » . و كان السبب في هذا ان بطرس الإسكندري كان قد قطع ملاتيوس المبتدع اسقف ليكوبوليس الذي حاول ان يغتصب العـــادة القديمة التي جعلت السلطة والتقـــدم في مصر وليبية لاسقف الاسكندرية فتجاسر ان يسيم آخرين في دائرة الاسكندرية . فجاء هذا القانون يوجب ابقاء القديم على قدمه في مصر لاسقف الاسكندرية وفي ايطاليا وتوابعها لاسقف روما وفي سورية وملحقاتها من ولاية الشرق لاسقف انطاكية وفي سائر الأبرشيات اي الولايات لاسقف العاصمة في كل منها وحفظ الآباء بالقانون السابـــع « الكرامة لاسقف اوروشليم (ايلياء) كما جرت العادة » ويلاحظ هنا أنه على الرغم من موقف فيكتوريوس بابا رومة وموقف خلفه اسطفانوس المشار اليهما أعلاه لم يتخذ الآباء اي قرار في قضية السلطة التي أثارها وان رومة نفسها لم تثرها هذه المرة .

* * *

كنيسة رسمية

وكان ما كان من أمر تقهقر رومـــة الداخلي ومن أزمات القرن الثالث التي حلت بها ومن هجمات القبائل البربرية عند الحدود ومطامع دولة الساسانيين الفتية فرأى غلاريوس الأمبراطور ان يكسب عطف المسيحيين وولاءهم فأصدر قبيل وفاته في السنة ٣١١ براءة صفح فيهـــا عما سلف للمسيحيين من مخالفات لأوامر الدولة وأقر حقهم الشرعي في ممارسة دينهم . ورأى قسطنطين ما رأى واعتبر وشعر انه فاز بعطف إله النصارى فشدَّد في تنفيذ براءة غلاريوس وساوى بين النصارى وبين الوثنيين في الحقوق والواجبات . فأصبحت الكنيسة مؤسسة شرعيـــة واضطرت ان تندمج في نظام الدولة وتنسجم معها .

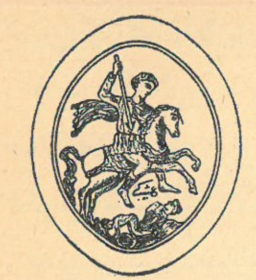


الامبراطور
قسطنطين الكبير

وكان الأمبراطور الوثني يجمع في شخصه السيادتين المدنيـــة والدينية فيحمل بالاضافة الى ألقابه الرسميـــة العديدة لقب الحبر الأعظم . فلما أصبحت الكنيسة مؤسسة شرعية أصبح هو بطبيعـــة الحال رئيسها القانوني . وكان لعطف قسطنطين على الكنيسة وقع عظيم في جميع الأوساط النصرانية فاشتد الحماس له وعظمت الثقة به فهرع افسابيوس الاسقف المؤرخ الى تنصير « الحبرية الوثنية العظمى » في الخطبة التي أعدها لمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على جلوس قسطنطين (١) . واستعان افسابيوس فيما يظهر بمخلفات الفيلسوف الهليني ذيوتوغينس فاطلع على مصنفه « الفسليفس » (٢) وجعل من الحكومة الارضية صورة للحكومة السماوية وقال باله واحد في السماء وحاكم واحـــد على الارض وبقانون واحد في السماء

1) *Eusebius, Triakontaeterikos, ed. Heikel ; Baynes, N. H., Ensebius and the Christian Empire (Mélanges Bidez), 1933, 13 - 18.*
2) *Diotogenes, Peri Basileias ; Delatte, L., Les Traitées de la Royauté d'Ecphante, Diotogene et Sthenidas, 1942.*

وقانون واحد على الارض وجعل من الامبراطور الروماني نائباً مفوضاً من الله . وثبت ايمان قسطنطين هـــذا الرأي ولاسيما احساسه بالرسالة السماوية التي كان يحملها واهتمامه بامور الكنيسة وسعيه لتوحيد كلمتها .



رسم قسطنطين الثاني

ومن هنـــا في الارجح قول افسابيوس ان الأمبراطور أمسى اسقف من كان لا يزال خارج الكنيسة . وشاع اجتهاد افسابيوس وسكت عنـــه الاساقفة في الشرق وفي الغرب ايضـــاً . وظل خلفاء قسطنطين الأباطرة المسيحيون يستعملون اللقب الحبر الأعظم حتى عهـــد غراتيانوس (٣٦٧ــ٣٨٣) فكان هو اول من اعتبره غير لائق بأمبراطور مسيحي فأسقطه من لائحة الألقاب الرسمية في السنة ٣٧٩ .

وجاء الأمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ــ٣٩٥) فأعلن في الثامن والعشرين من شباط سنة ٣٨٠ العقيدة المسيحية عقيدة الدولة . وتبنى الارثوذكسية في الرأي أي رأي دماسوس الروماني وبطرس الاسكندري . ونعت الآخرين بالهرطقة ولم يسمح لهم ان يدعوا الأبنيـــة التي اجتمعوا فيها كنائس فأصبحت الكنيسة كنيسة رسمية بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وظل اجتهاد افسابيوس سائداً في الشرق والغرب . واستعاض أباطرة القرن الخامس عن اللقب الحبر الأعظم باللقب الحبر المجيد « *Pontifex Inclitus* » . وتلقب به كل من انسطانيوس ومارقيانوس (١). ومن هنا ايضاً دعاءُ الأساقفة المجتمعين في القسطنطينية في السنة ٤٤٨ للأمبراطور ثيودوسيوس الثاني « سنوات عديـــدة للأمبراطور « الكاهن الأعظم » التي الارثوذكسي » . ومن هنا ايضاً هتاف آباء المجمع الخلقيدوني « ليحيى الكاهن الامبراطور » . ومن هنا ايضاً ورود النعت « المقـــدس » خمس عشرة مرة في الرسائل التي وجهها لاوون الاول اسقف رومـــة الى الأباطرة المعاصرين (٢) . ويوستنيانوس هو اول المفرقين بين السلطتين الروحية والزمنية ولكنه اعتبرهـــما معطاتين من الله . وأوجب التآلف بينهما « *Symphonia* » لسعادة البشر .

1) *Batiffol, P. Bull. Soc. Nat. Ant. de France, 1926, 222 - 227.*
2) *Kissling, W. K., Das Verhaltnis zwichen Sacerdotium und Imperium, 91.*

ويلاحظ هنا انه ليس في هذا كله اية قيصرية باباوية « *Césaropapisme* » بالمعنى السائد في الاوساط اللاهوتية الكاثوليكية الغربية (١) . فهو ليس سوى اثر من آثار الوثنية الرومانية رضيت عنه كنائس الشرق والغرب في القرون الرابع والخامس والسادس ثم حاولت التحرر منه في الشرق والغرب ايضاً . هذا ما يراه استاذ بلغراد جورج اوستروغورسكي (٢) . وهو ما يقول به ايضاً بعض علماء الكنيسة الغربية امثال الأب فرنسيس دفورنيك (٣) والاستاذ لويس براهيه (٤) . وبلغت حركة التحرر هذه اشدها في الشرق في حروب الايقونات في القرنين الثامن والتاسع . فالآباء القديسون العلماء آنئذ رأوا في هذه الحروب نهضة تحرر من تدخل السلطات الزمنية في شؤون العقيدة ومن ادعاء الامبراطور لاوون الثالث في ساعة حماس شديد انه « أمبراطور وكاهن أعظم » (٥) . فقال الدمشقي دفاق الذهب : « نحن نطيع الأمبراطور في الامور التي تتعلق بحياتنا اليومية في الخضوع له وفي دفع الضرائب وتسديد الحسابات المستحقة اما في شؤون الكنيسة فلنا رعاتنا وشراح الكلمة ومن يفسر قوانيننا الكنسية . عليه واجب النجاح في السياسة وعلى الرعاة والوعاظ تنظيم امور الكنيسة وانتزاع هذه الصلاحية من أيديهم هو في حد ذاته سرقة » . وقال ثيودوروس الاستودي: «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وطالب باستقلال الكنيسة عن الدولة وحرية انتخاب الأساقفة وتطهير الكراسي من كل راشٍ او مرتشٍ .

وفي السنة ٨٨٦ بانت الابانا غوغوة او « المقدمة » في اربعين فصلا خلاصة وافية في ايدي القضاة واساتذة القانون وطلابه . ولعل الفضل الاكبر في اعداد نصوصها يعود الى البطريرك الفيلسوف فوطيوس . وكان الامبراطور باسيليوس يهدف من وراء هذا التشريع الى « اسقاط الاكلوغة الهدامة » التي

1) *Jugie, M., Schisme Oriental, 3 - 10.*
2) *Ostrogorski, G., Les Relations entre Eglise et Etat à Byzance, Seminarium Kondakovianum, 122 - 134.*
3) *Dvornik, F., Emperors, Papes, and General Councils, Dumbarton Oaks, 1951, 4 - 23.*
4) *Bréhier, L., Institutions, 444, 461 f.*
5) *Mansi, XII, Col. 975.*

ظهرت في عهد لاوون الثالث . في السنة ٧٢٦ « وابطال أحكامها الرديئة » . فجاءت وظيفة البطريرك في القانون الجديد قائمة بذاتها مستقلة وجاءت مهمته منفصلة عن مهمة الامبراطور الفسيلفس . فالدولة في الأباناغوغة كالانسان تتألف من اعضاء كثيرة . وأعظم هذه الأعضاء وأهمها الامبراطور والبطريرك . فالامبراطور يؤمن سلماً للنفوس والاجساد وسعادة والبطريرك يقوي التآلف في الايمان الواحد ويبعد المؤمنين عن الهرطقات والخطيئة ويقودهم الى التوبة . الامبراطور يتوخى الاحسان والمبرة فان اخفق اساء الى الملك الذي توارث عن السلف . اما البطريرك فانه يهدف الى خلاص النفوس التي ائتمن عليها الى العيشة لاجل المسيح والى نكران العالم (١) . هذا ما جاء في الاباناغوغة وهو ما عمل الروم به في الدين والدولة (٢) .

وقد حفظ لاوون الشماس في تاريخه نص خطاب ألقاه الامبراطور يوحنا جيمسكي (٩٦٩ ـ ٩٧٦) وقال فيه : « هنالك سلطة واحدة صنعت من العدم نظام العالم المنظور وغير المنظور . واني أعترف بسلطتين في عالمنا هذا بسلطة الكهنوت والسلطة الامبراطورية . وقد ائتمن الخالق الواحدة على حفظ النفوس والاخرى على حكم الاجساد وليس لاية منها ان تقصر في القيام بواجبها بل يجب حفظها كاملتين نشيطتين» . وقال ميخائيل بسلوس العالم والسياسي ويوحنا الفخيتا قولا مماثلا في القرن الحادي عشر . فالامبراطور والبطريرك عند يوحنا مقامان من الله وكلاهما للمسيح وكلاهما ممسوحان من الله (٣) . ومن هنا تكريس الامبراطور ومنحه حق التناول من المائدة. ولكنه لم يكن في اي وقت من الأوقات كاهناً او شماساً او اسقفاً او قيصراً وبابا . ولم يشق أساقفة الروم في أي وقت من الأوقات شقاء اخوانهم اساقفة الغرب في تسلم سلطتهم من امراء زمنيين. والاشارة هنا الى مشكلة التثبيت التاريخية « *Investiture* » .

ولم يرض البطريرك المسكوني ميخائيل الاول « كيرولاريوس »

1) *Zepos, J. et P., Jus Graecopomanum, II, 240 ff.*
2) *Ostrogorsky, G., The Byzantine State 213, n, 2.*
3) *Brehier, L., Le Schisme Oriental, 75, 275 ; P.G., Vol. 120 Cols. 1163, 1183.*

(١٠٤٣ – ١٠٥٨) باستقلال السلطتين وتآلفهما وتعاونهما بل طمع ، فـيما يظهر، بأكثر من هذا فاحتذى الارجواني لون السلطة والسيادة الزمنية فاستحق تأنيب بسلوس : « انت ديموقراطي في نفسك وتجد صعوبة في تحمل الملكيـة فلا تسعى للتسلط علينا ولا تلعب دور الامبراطور لأنك ان فعلت ذلك نبذك معظم الناس . قام في ما مضى من جمع في شخصه بين الكهنوت وحماية الشعب (والاشارة هنا الى ملكيصادق) (١) ولكن اليوم ما كان مفرداً أصبح مزدوجاً . فقد ترتب لنا سلطة امبراطورية وكهنوت » (٢) . ويذكر سكيليجي « *Scylitzes* » في حوليـاته (كدرينوس ٢ : ٦٤٣) ان كيربلاريوس قال ان الفرق بين السلطة المدنية وسلطة الكهنوت كان قليـلا وان الكهنوت كان أشرف من تلك . ولكن الكرسي البطريركي القسطنطيني لم يتسع في اي وقت من الأوقات الى بابا من نـوع غريغوريوس السابع . فان كيرولاريوس خلع خلعـاً ولم تقم في القسطنطينية لا قيصرية باباوية ولا باباوية قيصرية كما جرى في رومة القديمة في ما بعد .

وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه في الشرق أكثر من الغرب . فالقبائل البربرية التي كانت تهدد حدود الدولة في اوروبة كانت تتأثر كثيراً بحركات القبائل الضاربة في مراعي روسية الجنوبية . والاسرة الساسانية الفتية التي كانت قد أعادت الى فارس نشاطها وطموحها كانت قد بدأت تطمع في ولايات رومة الشرقية لتطل على البحر الابيض المتوسط . وكانت هذه الولايات الشرقية قد احتفظت بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي الى الخزينة مبالغ عظيمة من المال تفوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية . وكانت ولايات البلقان تقدم أفضل الرجال للجيش . ولمس قسطنطين الكبير هذا كله فرأى ان لا بد من انشاء عاصمـة جديدة في الشرق تسهل الدفاع عن الدانوب والفرات وتضمن الطمأنينة اللازمة للولايات الشرقية مركز الثقل النوعي للامبراطورية الرومانية . فأراد في البدء ان يجعـل مسقط رأسه نيش عاصمة لملكه ثم اتجهت أنظاره نحو صوفية وتسالونيكية . ورأى بعد ذلك ان طروادة أحق بالشرف من هذه جميعها

1) *Kissling. W. K., op. cit., 140, n. 4.*
2) *Sathas, K. N., Mesaionike Bibliotheke, V, 512.*

لأنها موطن الجبابرة ومسقط رأس الرومانيين الاولين الذين أسسوا رومة . وقام اليها بنفسه وخطط العاصمة الجديدة فيها ولكنه تراءى له في حلم ان الاله يأمره بالتفتيش عن محل آخر فوقع اختياره على بيزنطة .

وكانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها أبناء ميغارة في السنة ٦٥٢ قبل الميلاد للاتجار بحبوب روسية الجنوبية ومعادن حوض البحر الاسود ومصايد البوسفور . فدعا قسطنطين عدداً كبيراً من كبار الأغنياء في بلاد اليونان وآسية للاقامة فيها وأغرى آلافاً من رجـال الصناعة والتجارة والفن للغرض نفسه . ووزّع القمح والزيت مجاناً على السكان . ودعا عدداً من شيوخ رومة القديمة ووجهائها للاقامة في رومة الجديدة فكانوا نواة مجلس شيوخها . وأنشأ فيهـا قصراً امبراطورياً فخماً واوغوسطايوم وأحاط هذه الساحة العمومية من جميع جوانبها بالمنشآت العامة . وأقام ملعباً كبيراً وميليوناً اي نقطة انطلاق لبعـد المسافات في جميع أنحاء العالم الشرقي وكنيسة كبيرة أسماها كنيسة الحكمة المقدسة وهي غير هذه التي نعرف اليوم منذ عهد يوستنيانوس .

وكان الرسل الأطهار قد أقاموا الأساقفة في عواصم الولايات وفي عاصمة الدولة . وكان أساقفة العواصم قد تقدموا على الأساقفة في الولايات التي انتموا اليها . وكان اسقف رومة القديمة قد تقدم على سائر الأساقفـة في الاكرام والاحترام كما سبق وأشرنا . وكان ثيودوسيوس الكبير قد جعل في السنة ٣٨٠ من العقيدة المسيحية عقيدة الدولة ومن الكنيسة كنيسة الدولة فلما اجتمع الآباء القديسون في القسطنطينية في السنة ٣٨١ للنظر في شؤون الكنيسة جمعاء في عهد هذا الامبراطور وبناء على دعوته رأوا من العدل والانصاف ان يجيء اسقف العاصمة الجديدة بعد اسقف العاصمة القديمة في الاكرام والاحترام . فجاء في قانونهم الثاني انه « لا يسمح للاساقفة ان يتصرفوا في سياسة الكنائس خارج ادارتهم بل حسب القوانين يجب على اسقف الاسكندرية ان يدير امور مصر فقط وعلى اساقفة الشرق ان يسوسوا المتعلقات الشرقية فقط مع حفظ التقـدم لكنيسة الانطاكيين حسب نص القوانين في مجمع نيقية . وانه يجب على أساقفة الادارة

الاسيوية ان يسوسوا ادارات آسية فقط وأساقفة البونط ما للبونط فقط وأساقفة تراقية شؤون تراقية فقط . وانه لا يسوغ للاساقفة ان يتصدوا لسيامات خارج ادارتهم او لاجراء امور كنائسية اخرى دون ان يدعوا . وانه يجب ان يحفظ القانون الذي سبق وضعه بخصوص ادارة الأحكام لأنه واضح ان كل ولاية يدير شؤونها مجمعها وهو يتولى الحكم فيها كما تحدد في مجمع نيقية . أما شؤون كنائس الله الواقعة في الامم البربرية فيجب ان تساس حسب عادة الآباء الجارية » .
ويلاحظ هنا هذا التفقيط المتكرر في تحديد رقاع السلطة وهذا السكوت المطبق عن سلطة تفرضها رومة على سائر الكنائس . وجاء في القانون الثالث بعد هذا ما نصه : « أما اسقف القسطنطينية فليكن له تقدم التكريم بعد اسقف رومة لأنها رومة جديدة » . وكلمة « بعد » الواردة في متن هذا القانون الثالث لا تدل على تخفيض وتنقيص كما زعم بعض المفسرين بل على ترتيب تاريخي كما سيظهر جلياً من نص القانون الثامن والعشرين من قوانين المجمع الرابع المسكوني .

ويلاحظ هنا ان رومة القديمة لم تعترض على هذا النص ولم تثر ما كان يتحسس به بعض أساقفتها من فرض شيء من الاقتداء بهم والقول بآرائهم على سائر اساقفة الكنيسة . ويلاحظ ايضاً ان الاسكندرية اعترضت على هذا التقدم وان نزاعاً شديداً نشأ بينها وبين القسطنطينية وان رومة القديمة ساندت رومة الجديدة في موقفها من الاسكندرية . والاشارة هنا الى سعي بطرس الثاني اسقف الاسكندرية لايصال مكسيموس الفيلسوف الكلبي الى الكرسي القسطنطيني وامتعاض الامبراطور ثيودوسيوس من هذه المناورة الخاسرة ورفضه ذلك رفضاً باتاً وسن القانون المسكوني الثالث الذي اليه أشرنا . وقام ثيوفيلوس الاسكندري بمثل ما قام به سلفه بطرس فأحب ان يوصل الى كرسي رومة الجديدة صديقه اسيدوروس ولكن افترابيوس الخصي استقدم الذهبي الفم من انطاكية . وكان ما كان من أمر المشادة بين ثيوفيلوس وبين الذهبي الفم ومن تأييد رومة القديمة للبطريرك القسطنطيني القديس الذهبي الفم . وهنالك « شيء من هذا » ايضاً في النزاع بين كيرلس الاسكندري ونسطوريوس القسطنطيني الذي أدى الى انعقاد

المجمع المسكوني الثالث في افسس . ومن هنا قول نسطوريوس : « ان كيرلس استدعاني للمثول أمام مجمع دعا هو اليه . ومن كان القاضي سوى كيرلس المشتكي كيرلس الذي كان ايضاً اسقف رومة . وكيرلس كيرلس كان كل شيء » . ومن هنا ايضاً قول ثيودوريطس « لقد مات كيرلس فلنضع حجراً ثقيلا على قبره » .
وتوفي كيرلس في السنة ٤٤٤ فقام ديوسقوروس بعده يتبع السياسة نفسها ويتمادى فيها معتمداً على نفوذ خريسافيوس الخصي معارضاً الامبراطور واسقف رومة معاً . ولكن اسقف رومة كان في هذه المرة لاوناً عظيماً . فكتب الى ديوسقوروس يوجب قولا واحداً فأجاب هذا ان في الشرق باباً كما في رومة . وقدم مؤرخه القبطي بعد وفاته مرقس على بطرس ! (١) .

وكان مجمع مسكوني رابع في السنة ٤٥١ في خلقيدونية . فنظر الآباء القديسون في هذا الأمر وفي غيره وحكموا حكماً مبرماً في الجلسة الخامسة عشرة فاشترعوا القانون الثامن والعشرين وأوجبوا تقدم اسقف رومة الجديدة ومنحه المنزلة نفسها التي لاسقف رومة القديمة . فقالوا : « وبما اننا في كل أمر تابعون تحديدات الآباء القديسين وعارفون بقانون الأساقفة المئة والخمسين الجزيل توزعهم الذين اجتمعوا في عهد التقي الذكر ثيوذوسيوس الكبير الذي صار ملكاً في القسطنطينية رومة الجديدة المتملكة أي القانون الذي تلي منذ برهة وجيزة نحدد نحن ايضاً ذلك التحديد عينه ونصدق عليه في تقدم الكنيسة الجزيلة القداسة كنيسة القسطنطينية عينها رومة الجديدة لأن الآباء منحوا بلياقة لكرسي رومة القديمة التقدم لأنها المدينة المتملكة . وهذا القصد عينه قد حرك الأساقفة المئة والخمسين الجزيل توزعهم فمنحوا كرسي رومة الجديدة الجزيل القداسة مساواة التقدم اذ رأوا من الصواب ان المدينة التي قد شرّفت بالملك والمجلس الأعلى وحصلت على مساواة التقدم (مدنياً) لرومة عاصمة الملك القديمة لها ان تعظم مثل تلك في الأحوال الكنائسية ايضاً وان تكون ثانية بعدها » . ويتبين من هذا ان تقدم اسقف رومة لم يكن في نظر آباء القرن الخامس الا لكون رومة « متملكة » وهكذا فانه عندما

1) *Baynes, N. H., Alexandria and Constantinople, Byz. Studies, 97 - 115.*

تملكت القسطنطينية رومة الجديدة اعطي اسقفها التقدم نفسه الذي كان قد اعطي لرومة القديمة .

ولم يحضر نواب رومة هذه الجلسة الخامسة عشرة ولعلهم شعروا بما سيجيء فيها. ولكنهم عادوا في الجلسة السادسة عشرة، وهي الأخيرة، واعترضوا على نص القانون الثامن والعشرين وادعوا ان اناطوليوس اسقف القسطنطينية اغتنم فرصة غيابهم فأتى بما يخالف التعاليم الرسولية والأبوية ولا سيما القانون السادس من قوانين مجمع نيقية المسكوني الاول . وأبرز كبيرهم باسكاسينوس القانون السادس النيقاوي على هذا الشكل : « ان كنيسة رومة لها الاولية على الدوام ومن ثم يكون ذلك لمصر ايضاً بأن يكون اسقف الاسكندرية ذا سلطان على الجميع لأن هذا الأمر عادة مرعية لاسقف رومة ايضاً » . حينئذ تليت اعمال المجمعين المسكونيين الاول والثاني فتبين فرق في النص بين ما أبرزه باسكاسينوس الروماني وبين النص الاصلي وان العبارة وان كنيسة رومة لها الأولية على الدوام غير واردة في الأصل . وسأل القضاة الأساقفة الأعضاء ما اذا كانوا قد اكرهوا على سن هذا القانون فأكدوا انهم وافقوا طوعاً وانهم وقعوا بخط أيديهم . فلفظ القضاة ما يلي : « اننا بناء على ما ظهر من الأعمال ومن اقرار كل واحد نرى ان يحفظ قبل كل شيء التقدم والكرامة الممتازة بحسب القوانين لاسقف رومة القديمة الجزيل تورعه ويجب ايضاً ان يتمتع اسقف القسطنطينية المتملكة رومة الجديدة الجزيل بره بالتقدم نفسه في الكرامة » .

وأسف الآباء الأعضاء لموقف نواب رومة فكتبوا الى حبرها القديس لاوون كتاباً أكدوا فيه محافظتهم على اكرام رومة القديمة قائلين « انك كنت متقدماً فينا بواسطة نوابك مثل الرأس في الأعضاء » وقالوا انهم بمنح اسقف القسطنطينية التقدم بعد رومة انما أثبتوا قانون المجمع المسكوني الثاني وان « كل ما عملوه بالهام الله وانهم لم يمنحوا أحداً شيئاً بغير حق ولا قاوموا أحداً بعداوة » وانهم أرسلوا اليه أعمال المجمع « ليكون معلوماً عنده ما جرى من صحة الأحكام وثبات الأعمال » .

ويلاحظ هنا ان الآباء الخلقيدونيين اعتبروا المجمع المسكوني الأداة الوحيدة للحل والربط حيث قالوا : « نحدد نحن ايضاً ذلك التحديد عينه » . ويلاحظ ايضاً ان هؤلاء الآباء لم يروا مبدأ التقدم بين الأساقفة ناشئاً عن رتبة رئيس في الرسل وانما اعتبروه منحة من الآباء والكنيسة وانهم لم يروا سبب هذا التقدم خلافة عن رسول من الرسل وانما اعتبروه نتيجة طبيعية لتقدم المدن بعضها على بعض . فانهم قدموا القسطنطينية « لكونها المدينة المتملكة » . ورأوا ايضاً ان « تملك » هذه المدينة جعلها مساوية لرومة .

ولم يرض لاوون عن القانون الثامن والعشرين وكتب في ذلك محتجاً معترضاً الى المجمع والى الامبراطور . ولكن الآباء لم يقبلوا اعتراضه بل ثبتوا قرارهم السابق . فسكت لاوون ولم يثر ضجة ولم ينقطع عن الشركة معهم لأنه أحب المسيح وأحب كنيسته محبة مسيحية حقيقية لا غش فيها . فأكرمه الأباطرة والأساقفة ولقبوه بأول الأساقفة واعتبروه مفسراً اميناً للعقيدة المقدسة . ولا يزال يمجد « مقراً الهياً لنعمة الله » .

اسقف القرن السادس

وتبنى الأباطرة المسيحيون أعمال المجامع كما سبق وأشرنا فاعتبروا قراراتها قانونية شرعية نافذة سارية المفعول. وجاء يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) يعيد النظر في النظم والقوانين (٥٢٨ ـ ٥٣٤) فأصدر النوفلتين المئة والثالثة والعشرين والمئة والحادية والثلاثين فاعتبر فيها الكنيسة الجامعة مؤلفة من خمس بطريركيات لا سادسة لها : رومة القديمة ورومة الجديدة والاسكندرية وانطاكية واوروشليم . وشملت سلطة بطريرك رومة القديمة كل الغرب وذيقوسية اليرية الشرقية . وشملت بطريركية رومة الجديدة ذيقوسيات تراقية وآسية والبونط . وخضعت مصر وصعيدها وليبية والقيروان لبطريرك الاسكندرية. واعتبر بطريرك انطاكية متسلطاً على ذيقوسية الشرق ما عدا فلسطين الاولى والثانية والثالثة . وتبعت هذه الفلسطينيات بطريرك اوروشليم . وهذه هي المرة الاولى التي ورد

فيها لقب بطريرك في معاملات رسمية . وقدم يوستنيانوس بطريرك رومة القديمة على سائر البطاركة واعتبره رأس الكنائس كلها . وجعل بطريرك رومة الجديدة الثاني بعده . ولكنه أصر في السنة ٥٥٣ ، لمناسبة انعقاد المجمع المسكوني الخامس، على وجوب المساواة بين البطريركيات الخمس بارسال عدد مماثل من الأساقفة من كل منها (١) .

وفي السنة ٦٨٠ عقد في القسطنطينية المجمع المسكوني السادس للنظر في بدعة المشيئة الواحدة بدعوة من الامبراطور قسطنطين الرابع وبرئاسة البطريرك القسطنطيني جاورجيوس . فقدم نواب البابا الدعوى كما في المجمع المسكوني الرابع الخلقيدوني ولكنهم لم يقولوا مثل سلفائهم : « اننا مأمورون من اسقف مدينة الرومانيين الرسولي الجزيل الغبطة الذي هو رأس جميع الكنائس » بل وجهوا خطابهم الى الامبراطور وقالوا : « ايها السيد الكلي الخير . اننا بحسب المرسوم الصادر من دولتكم المحكمة من الله الى بابانا الجزيل القداسة قد أرسلنا من طرفه الى المواطىء الكلية التقوى مواطىء حلمكم المؤيد من الله ومعنا معروض منه ومعروض آخر مجمعي من الأساقفة الجزيل برهم الخاضعين له برسم تقواهم المحصَّن من الله » . ومما جاء في البيذاليون ان الامبراطور حرر الى البابا لاوون الثاني يقول :

كاهن
القرن السادس

« اننا نجتهد في ان نأتي برعيتنا المسيحية الى السلام والانضمام ونهتم في انتظام كنائس الله المقدسة . وبحسب دعوتنا وأمرنا قد اجتمع الذين من طرف غبطتكم والبطاركة الجزيلو القداسة الذين بعدكم المساوون لكم في الكرسي وسائر الأساقفة الجزيل برهم وجالسوا حلمنا المحب التقوى وكنا نتذاكر في موضوع الايمان» .

وعاد الآباء في السنة ٦٩٢ الى الاجتماع في قاعة القبة « طرولوس » في القسطنطينية لسن القوانين لأن المجمعين الخامس والسادس لم يعنيا بذلك . فدعي هذا المجمع « مجمع البنثيكتي » اي الخامس السادس . فقالوا في القانون السادس

1) *Brehier, L., Concile de Const., Fliche et Martin, IV, 471 - 472.*

والثلاثين : «اننا نجدد ما اشترع من الآباء القديسين المئة والخمسين الذين اجتمعوا في هذه المدينة المتملكة المحروسة من الله ومن الآباء الست مئة والثلاثين الذين اجتمعوا في خلقيدونية فنرسم ان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم اسوة بتقدم كرسي رومة القديمة فيعظّم مثله في الامور الكنائسية بكونه ثانياً بعده . ويُحسب كرسي المدينة العظيمة الاسكندرية بعدهما . وبعده كرسي انطاكية . وبعد هذا كرسي مدينة الاوروشليميين » .

وهنالك قول رسمي آخر كان له اثره في علاقات الكنائس الشرقية بالغربية هو القول بوحدانية الامبراطورية . فالامبراطورية الرومانية نشأت مجموعة من الشعوب والبلدان لا دولة موحدة . وشعر كبار الاباطرة بهذا النقص فحاولوا تلافيه منذ عهد اوغوسطوس . وكان ديوقليتيانوس اشدهم عناية بهذا الأمر . فوحد الدولة ونظمها حول شخص الامبراطور وأصر على تكريمه الى درجة السجود . وقال قسطنطين هذا القول نفسه . وأصدر فيما أصدر لهذه الغاية براءة ميلان (١) . ثم تنصرت الدولة فأصبح الملك لله وحده كما سبق واشرنا وأصبح الامبراطور ممثل الواحد الاوحد في شؤون الدنيا. وشملت سلطته المسكونة « *Oikoumene* » بأسرها . فأصبح للدولة عاصمتان رومة القديمة ورومة الجديدة فنشأ اللقب « المسكوني » واستعمل في القرن الخامس لتعظيم كل من اسقف رومة لاوون الاول وزميله الاسكندري ديوسقوروس . ولعلّ اوليمبوس اسقف افازة هو اول من استعمل هذا اللقب فخصّ به ديوسقوروس في مجمع التلصص في افسس سنة ٤٤٩ . وحذا حذو اوليمبوس الشماس الاسكندري ثيودوروس حين خاطب لاوون اسقف رومة لمناسبة المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ . وجاء مثل هذا ايضاً في الرسالة التي وجهها رؤساء الاديار في القسطنطينية الى البابا اغابيتوس في السنة ٥٣٥ (٢) . وأعلن الامبراطور زينون كتابه الاينوتيكون فأيده فيه اكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧٢ ـ ٤٨٨) . واعترض سمبليكيوس بابا رومة فحلّ الشقاق بين الحبرين فاتخذ بطريرك

1) *Jalland, T. G. The Church and the Papag, (1944); Congar. Y. Neuf Cents Ans, 13 — 14.*
2) *Mansi, VI, Cols. 855, 1005, VII, 895.*

القسطنطينية لقب البطريرك المسكوني وتبعه في ذلــك خلفاؤه . وفي السنة ٥١٨ وجهت الاوساط الاكليريكية الانطاكية رسالة الى البطريرك القسطنطيني يوحنا الثاني (٥١٨ ــ ٥٢٠) فاعتبرته بطريركاً مسكونياً . وكتب هــذا البطريرك الى زميله الاوروشليمي ووقع متخذاً اللقب البطريرك المسكوني (١) .

وجاء يوستنيانوس بقوانينه وشرائعــه فاعتبر كل بطريرك قسطنطيني بطريركاً مسكونياً . واشار الى اسقف رومة بمـا يجوز تعريبه هكذا : « صاحب القداسة رئيس اساقفة المدينة الاولى رومة وبطريركها » (٢) . وفي اعمــال المجمع المسكوني الخامس ما يؤيد هــذا كله . فالاشارة الى اسقف القسطنطينية جاءت مقرونة باللقب البطريرك المسكوني (٣) . وعلمت رومــة بهذا كله في حينه ولم تعترض . ثم نشبت مشادة بين غريغوريوس الاول البطريرك الانطاكي وبــين استيريوس والي الشرق بــين السلطة الروحية والسلطة الزمنية في الولاية نفسها . فعقد مجمع مكاني بسبب هذه المشادةفي القسطنطينية في السنة ٥٨٧ وترأس جلساته يوحنا الصوام بطريرك القسطنطينية وخرج غريغوريوس نقي الثوب بريئاً . ولكن بيلاجيوس الثاني بابا رومــة اعترض على عقد المجمع بدون علمه وعلى اللقب البطريرك المسكوني الذي ورد في اعمال هــذا المجمع مقروناً باسم بطريرك القسطنطينية . وشدد بيلاجيوس على وكيله في القسطنطينية الا يشترك مــع يوحنا ما دام متمسكاً بهذا اللقب . فلم يكترث الصوّام لهذا كله فاكتفى بيلاجيوس بان شكا أمره الى زميليه البطريرك الانطاكي والبطريرك الاسكندري معترفاً بعمله هذا بحق هذين البطريركين في التدخل لحل المشكلة التي نشأت بين رومة القديمة ورومة الجديدة . وهو عرف لا تزال الكنائس الشرقية تعمل به عند اشتداد الأزمات .

ثم خلف بيلاجيوس غريغوريوس الكبير (٥٩٠ ــ ٦٠٤) فرأىفي اقدام زملائه القسطنطينيين على التلقب بالمسكوني خطراً يهدد وحدة الكنيسة فكتب الى يوحنا في السنة ٥٩٥ يرجوه المحافظة على « التواضع » الذي يحفظ اتفاق جميــع

1) *Mansi, VIII, Cols. 1038, 1066 - 1067.*
2) *Code I, 1.*
3) *Gelzer, H., Der Streit Uber den Titel des Aikumenischen Patriarchats, Iahrbucher fur Prot. Theologie, XIII, 49 ff.*

« الاخوة » ووحدة الكنيسة . فلم يعبأ الصوام بذلك وتوفي بعد ذلك بقليل (٥٩٥) . ويلاحظ هنا انالصوام وغريغوريوس اشتهرا بالورع والتقوى وانهما اعتبرا فــيما بعد قديسين في فرعي الكنيسة الواحدة الشرقي والغربي . ولا يجوز والحالة هــذه الشك في نزاهتهما واخلاصهما وتواضعهما . ولكن يلاحظ ايضاً ان كــلا من القديسين اعتبر نفسه محقاً فيما فعل . فطالب اسقف رومة القديمة بتقدم مرفوق بسلطة فرفض اسقف رومة الجديدة الاعتراف بهذه السلطة (١) . وتوفي الصوام متميزاً بالصوم والتقوى محرزاً « بالتواضع رفعة وبالمسكنة غنى » فجاء بعده كرياكوس فكتب رسائل السلام الى الكنائس وفي طليعتها كنيسة رومة القديمة فأجابه غريغوريوس مهنئاً ثم كتب له ان يترك لقب البطريرك المسكوني وكتب الى وكيله سبنيانوس الا يخدم القداس معه ما لم يترك اللقب . فكتب انسطاسيوس البطريرك الانطاكي الى غريغوريوس الا يفسح المجال للشر وان يعود الى اللطف والملاينة (٢) .

* * *

1) *Jaffé - Wattenbach, 1352, 1357, 1360 : Bréhier, L., Rome et Const., Fliche et Martin, V, 64 - 65.*
2) *Jaffé - Wattenbach, 1470.*

وَاحِدَةٌ مُضْطَرِبَة

وكانت دولة رومة قد دالت في الغرب فخلت عاصمتها الاولى من امبراطور روماني منذ السنة ٤٧٦ . ولم يبق للدولة الرومانية سوى عاصمة فعلية واحدة هي رومة الجديدة . وعظم شأن هذه واكتظت بالسكان فبلغ عددهم في القرن السادس نصف مليون او اكثر (١) . وصمدت في وجه البرابرة وحفظت تراث الجدود فأصبحت في العصور الوسطى قبلة انظار العالم المتمدن في الشرق والغرب معاً . وظلّ الملك للواحد الاوحد فيها وظل الامبراطور القسطنطيني ممثله الاوحد فظلت الاراضي التي خضعت لرومة في الغرب خاضعة في المبدأ لامبراطور القسطنطينية . وأمسى حكام هذه الاراضي الغربية اعضاء في هيرارخية سياسية مسيحية يرأسها هذا الامبراطور الشرقي وينثر عليهم الالقاب (٢) . فكان من الطبيعي جداً ان يكتسب اسقف رومة الجديدة نصيباً وافراً من الاكرام والاحترام والنفوذ والزعامة وان يستمسك باللقب « المسكوني » .

وصغرت رومة القديمة وتقوّض سرادق مجدها فلانت شوكة اساقفتها ومالت دعائم عزمهم فشق عليهم ذلك فازدادوا تمسكاً بتقدم بطرس على الرسل وتقدم كنيسة رومة على سائر الكنائس وفي السنة ٧٩٥ رقي السدة الرومانية كاهن وضيع متواضع تقي ورع هو لاوون الثالث . فلقي مقاومة عنيفة من انسباء سلفه ادريانوس الاول . وكان في هؤلاء جلاقة ودناءة فهجموا عليه في عيد القديس مرقس في السنة ٧٩٩ وحاولوا تشويه جسده . ففر من رومة بعد التئام جرحه والتجأ الى بلاط كارلوس الكبير وشكا امره اليه . ولا نعلم ماذا جرى بين الاثنين

1) *Andréadès, A., Population de l'Emp. Byz., Bull. Inst. Arch. Bulgare, 1935, 117 ff; Baynes - Moss, Byzantium, (Econ. Life); Bréhier, L., Civilisation, 81 ff.; Dolger, F., Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner Zeit. Kirchengesch.. 1937, 13 ff.*
2) *Dolger, F., Die Familie de Konige im Mittelalter, Hist. J b., 1940, 397-420.*

بالضبط ولكننا نرى لاوون يعود الى رومة مكرماً تواكبه قوة عسكرية ونرى كارلوس نفسه يزور رومة في السنة التالية (٨٠٠) لينظر في قضية لاوون واخصامه فينتهز لاوون فرصة وجوده في رومة ويتوجه « امبراطوراً اوغوسطوساً تقياً مقاماً من الله مسلطاً على الرومانيين » . ويلاحظ هنا ان الامبراطور لاوون الثالث كان قد رفع في حوالي السنة ٧٣٣ سلطة البابا الروحية عن البرية وصقلية وكلابرية وألحق هذه الابرشيات بالبطريركية المسكونية وانه ايضاً كان قد وضع يده على اوقاف القديس بطرس في هذه الاماكن وغيرها . فلما التأم المجمع المسكوني السابع للنظر في تكريم الايقونات في السنة ٧٨٧ في نيقية كتب بابا رومة ادريانوس الاول الى البلاط الامبراطوري في القسطنطينية يرجو اعادة حقوقه المسلوبة اليه ويذكر بتقدم رومة وسلطتها . فحذفت هذه كلها من الترجمة اليونانية التي تليت امام الآباء المجتمعين فلم تبحث في المجمع ولم يتخذ اي قرار فيها (١) . فجاءت الكارولويات « *Libri Carolini* » في ما بعد تعارض قرارات المجمع المسكوني السابع وتنبىء بقلة اكتراث كارلوس وبلاطه برأي القسطنطينية حكومة وكنيسة وشعباً . وسكت أدريانوس عن قرارات مجمع فرانكفورت في السنة ٧٩٤ على الرغم من تعارضها مع قرارات المجمع المسكوني الذي اشتركت فيه رومة ووافقت على اعماله ! فاتضح للجميع ان اسقف رومة أصبح بالفعل اقرب الى بلاط كارلوس منه الى بلاط الامبراطور .

وهكذا فيكون البابا لاوون الثالث قد تابع بتتويج كارلوس امبراطوراً سياسة اسلافه الاقربين ووصل بها الى نتيجة منطقية محتمة فخرج على القول بامبراطورية واحدة . والخروج على القول بامبرطورية واحدة انما كان في حد ذاته خروجاً على فكرة الوحدة والتوحيد السائدة آنئذ في الاوساط القانونية والكنيسة : اله واحد ورب واحد وارض «مسكونة» واحدة وامبراطورية واحدة وكنيسة واحدة . فيجوز القول والحالة هذه ان باباوات القرن الثامن بعد ان يئسوا من الوصول الى ما اعتبروه حقهم المشروع وبعد ان رفضت المجامع المسكونية اقرار ما طالبوا به هم وسلفائهم من تقدم فعلي على سائر الكنائس

1) *Ostrogorsky, G., Byzantine State, 163 — 164*

خرجوا على القول بامبراطورية واحدة وأغضبوا البلاط الشرقي فالمقر البطريركي المسكوني ومهدوا السبيل لانشقاق أليم لا نزال نشكو منه حتى ساعتنا هذه .

ولم يدم عهد هذه الامبراطورية الرومانية الغربيـــة الجديدة . فان خلفاء كارلوس كانوا من صغـــار الرجال . فلما دالت دولتهم وتجزأت امبراطوريتهم واضطربت احوال ايطالية والتجأ البابا يوحنا الثاني عشر الى اوتون الاول ملك المانية نادى به امبراطوراً رومانياً مقدساً في كاتدرائيته في رومة في الثاني من شباط سنة ٩٦٢ فجدد بذلك تجزئة الوحدة وأثبت ابتعاده عن الشرق وانتماءه الى الغرب ودامت هذه « الامبراطورية الرومانية المقدسة » في الغرب قروناً طوالا حالّةً محل الامبراطورية الرومانية الشرقية الشرعية مناوئة لها مهددة في بعض الاحيان .

وأدى امتعاض رومة القديمة من امتنــاع الكنائس الشرقية عن الاعتراف برئاستها ومن قلــة اكتراث الحكومة الامبراطورية الشرقية لمطالبها التقليدية الى ظهور وثيقــة مزورة في الاوساط الكنسية الغربية في هذه الفترة والى استعمالها والاحتجاج بها لتأييد الرئاسة الكنسية العليا كما فهمتها رومة القديمة . والاشارة هنا الى منحة قسطنطين « *Donatio Constantini* » وتنص هــذه المنحة على ان الامبراطور قسطنطين الكبير منح البابا سلبستروس الاول (٣١٤ ـ ٣٣٥) التقدم الفعلي على اساقفة انطاكية والقسطنطينية والاسكندرية واوروشليم والسلطة الزمنية على رومة وكل ايطالية وجميع الولايات والمدن الغربية وانه اقام بابا رومة قاضياً اعلى على جميع الاكليروس وانــه قدّم له التاج الامبراطوري ولكن سلبستروس ابى وامتنع . ودخلت هــذه الوثيقة المزورة في نصوص القوانين الكنسية الغربية وظلت محترمة حتى شك في صحتها الكردينال الفيلسوف الالماني نيقولاوس الكوسي (١٤٠٠ ـ ١٤٦٤) والاسقف رينولدوس بيكوك (١٣٩٣ ـ ١٤٦٣) والأب لورنزو فالاّ (١٤٠٦ ـ ١٤٥٧) . ويجمع اليوم علمــاء الاوساط الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية على تزوير هـذه الوثيقة وعلى وقوع هذا التزوير اما

1) *Schonegger, A., Die Kirchenpolitische Bedeutung des Constitum Constantini, Zeit. Kath. Th., 1918, 327 - 371 : Buchner, M., Lex. Theol. Kirche, 1934, VI, Caols. 166 - 168 ; Leclercq, H., Dict. Arch. Chrét. Lit., III, Cols. 2676 - 2683.*

في القرن الثامن او في القرن التاسع بعده .

ومما أدى اليه تغافل رومة الجديدة عن مطالب رومة القديمة والقاء الأزمّة الى ايدي المقادير ظهور الديكريتات الكاذبة « *Fausses Décrétales* » في فرنسة في منتصف القرن التاسع . وقد نسبت خطأ الى اسيدوروس الاشبيلي (+ ٦٣٦) وهي مجموعة من الاوامر والرسائل الصادرة عن الباباوات ومن قوانين المجامع . اما القوانين فانها صحيحة على وجه الاجمال واما الرسائل والاوامر فانها كاذبة على وجه الاجمال . وقد زورت هذه لتدعيم حقوق الاساقفة في وجه رؤسائهم المطارنة ولتأييد سلطة الباباوات . وقـــد شك فيها وتردد في صحتها لاول مرة علماء ماغديبورج في السنة ١٥٥٨ (١) . واول من تذرع بهـــا من الباباوات البابا نيقولاووس الاول وذلك في السنة ٨٥٤ .

وكان الآباء في اسبانية قد قالوا في سبيل الدفاع عن صحة العقيدة بانبثاق الروح القدس من الآب والابن وذلك رداً على الآريوسية التي دخلت عليهم مع القبائل البربرية . وكانوا قد اقروا ذلك في مجمع مكاني مجمع توليدو الثالث في السنة ٥٨٩ . وتسرّب هـــذا القول الى فرنسة وشاع في اوروبة الغربيـــة حتى عمّ الامبراطورية الكارولية في حوالي السنة ٨٠٠ . ونقله حجاج الافرنج الى الاراضي المقدسة وتـــلاه رهبان الافرنج في اوروشليم على جبل الزيتون في السنة ٨٤٧ فاعترض على ذلك رهبان القديس سابا واسمعوا البابا لاوون الثالث احتجاجهم . فأصرّ على ما أقره الأبـــاء في المجمع المسكوني الثاني اي على القول بالانبثاق من الآب فقط وأمر بنقش دستور الايمان النيقاوي القسطنطيني على لوحتين من الفضة واقامهما عند قبر بطرس الرسول . ولكن موافقته على تفسير الدستور باضافـــة العبارة « والابن » *Filoque* ساعد على انتشار القول الاسباني. وعند انتهاء القرن العاشر بدأ الدستور يتلى مع القول الجديد في رومة نفسها .



متوحدون في القرن التاسع

1) *Migne, J. P., Pat. Lat., vol. 130 ; Villien, A., Dict. Theol. Cath., IV, Cols. 212 - 222 ; Naz, R., Dict. Dr. Can., IV, Cols. 1062 - 1064.*

ووصل احتجاج الرهبان الاوروشليميين الى القسطنطينية وسائر الكراسي الشرقية فلاقى تأييداً فيها . وقام فوطيوس يفند القول الجديد ويدحضه بما اوتي من علم وفصاحة فأمست العبارة « والابن » موضع اخذ ورد بين الشرق والغرب ولا تزال (١) .

وقاوم الآباء الارثوذكسيون الدولة في القرنين الثامن والتاسع محتجين على تدخلها في شؤون الكنيسة ولا سيا في امور العقيدة . وتوفي الامبراطور ثيوفيلوس في السنة ٨٤٢ فلما كان اول احد من الصوم الكبير من السنة ٨٤٣ اعيدت الايقونات الى سابق عهدها . وأصدر البطاركة الثلاثة خريستوفوروس الاسكندري وايوب الانطاكي وباسيليوس الاوروشليمي بياناً مشتركاً بوجوب حماية الايقونات وتكريمها .

ثم اختلف الآباء القسطنطينيون في موقفهم من الدولة فتطرف الايستودون ومنعوا كل تدخل حكومي في شؤون الكنيسة . واعتدل الاوليمبيون وكبار الاساقفة في هذا الامر نفسه فكانت متاعب لمتوذيوس البطريرك انتهت بانتقاء اغناطيوس بعده (٨٤٨) نظراً لطهارته من الجهة الواحدة ولصلته الشخصية بالاسرة المالكة من الناحية الاخرى . ونشأت مشادة بين الامبراطورة الوالدة ثيودورة وبين اخيها برداس المتقدم في البلاط . وتوفي احد ابناء برداس فأقامت ارملة هذا في بيت عمها برداس ولم تتفق هذه الكنة الارملة مع حماتها افذوكية فاندلع الشر في البيت . وعطف برداس على الكنة الارملة فاتهمته زوجته افذوكية بكنته . فطرد زوجته من البيت فراحت تتطاول عليه بلسان لم يكن قصيراً . فشاع الخبر العائلي في العاصمة . فوبخ البطريرك اغناطيوس برداس ونهاه عن المحرَّم وأمره ان يقبل امرأته وفي بيته فامتنع . وفي عيد الظهور الالهي

بطريرك مسكوني في القرن التاسع

1) Burn, H. E., *Some Spanish Mss. of the Const. Creed*, J.T.S., 1908, 301-303 Meester, P., *Le Filioque*, Rev. Ben., 1907, 86 - 103 ; Jugie, A. A., *Origine de la Controverse etc.*, Rev. Sc. Phil. Theol., 1939, 369 - 385 ; Kelly, J. N. D., *Early Christian Creeds*, 1950, 358 - 367.

سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ابن اخته الامبراطور ميخائيل الثالث لتناول الاسرار الالهية . فأبى البطريرك مناولته وطرده خارج الكنيسة امام الشعب كله ! وشفع الامبراطور دون جدوى . فغضب برداس واستغل قصة الراهب الذي كان يدعي انه ابن ثيودورة . فدافع البطريرك عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاتهم برداس البطريرك بالتآمر على الامبراطور واقنع الامبراطور بوجوب دخول ثيودورة وبناتها في الرهبنة . فسألهن اغناطيوس اذا كن يردن ذلك فأنكرن فامتنع عن اجابة طلب الامبراطور . فأكره الامبراطور والدته ثيودوره واخواته على الترهب وأمر اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه ففعل .

وتشاور الاساقفة والامبراطور وبرداس فأجمعوا على ان يكون خلف اغناطيوس رجل سلام يتوسط للوفاق بين الحزبين المتخاصمين . واشترطوا ايضاً ان يكون ذا همة ونشاط وعلم يدفع الهرطقات فاتفقوا على فوطيوس كاتم اسرار الامبراطور . فرفض فوطيوس فأصر الرؤساء والأعيان فلم يصغ لهم . فانحاز اليه عندئذ اكثر اتباع اغناطيوس المستقيل . ثم هدَّده برداس بالسجن فأذعن فرقي في ظرف اسبوع واحد جميع الدرجات الكهنوتية وسيم في يوم عيد الميلاد سنة ٨٥٨ اسقفاً وتوّج بطريركاً مسكونياً .

ولم يوفق فوطيوس الى القضاء على الشقاق بسرعة . فعاد الخصام وعاد بعض اتباع اغناطيوس الى المقاومة . ويئسوا فشكوا امرهم الى رومة . ولم تكن هذه اول مرة تلجأ فيها اقلية ارثوذكسية متظلمة الى رئاسات الكنائس الشقيقة فتاريخ الكنائس الارثوذكسية حافل بمثل هذا قبل الانشقاق وبعده. ولم تكن قضية الايقونات قد صفيت تصفية نهائية عملية وذرَّ قرن الشقاق بين اصحاب الطبيعة الواحدة وبين الارثوذكسيين : وهبَّ البوليسيون والمانويون يشاغبون . وعرا الكنيسة اضطراب شديد . فرأى الامبراطور والبطريرك ان يصار الى دعوة مجمع مسكوني . فكتب فوطيوس رسائل الجلوس ووجهها الى رومة والاسكندرية وانطاكية واوروشليم . فرد عليها البطاركة الشرقيون رسائل سلام اما بابا رومة نيقولاووس الاول فانه اغتنم هذه الفرصة للمطالبة بالابرشيات التي سلخت عن

بطريركيته وجعل اعادتها شرطاً اساسياً للاعتراف برئاسة فوطيوس في القسطنطينية وتوابعها . وأرسل اسقفين اثنين الى القسطنطينية ليحملا رده وينظرا في الموقف عن كثب . فلما وصلا ووقفا على حقيقة الأمر وجــدا ان اغناطيوس كان قابلا بشرطونية وان الجميع التمسو فوطيوس فوطيوس وأحرجوه ليقبل البطريركية . وأثرت شخصيته الفذة في نفسيهما فاشتركا في المجمع القسطنطيني «الاول الثاني» الذي انعقد في السنة ٨٦١ ووافقا على ارتقاء فوطيوس وعلى سائر قرارات هذا المجمع وأهمها الا يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقــة العوام او الرهبان ما لم يتمرس في الدرجات الكنائسية درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها .

وأرسل الامبراطور ميخائيل الثالث اعمال هــذا المجمع الاول الثاني الى البابا نيقولاوس الاول مع احد كتابه ومــع سفيري البابا وزودهم بهدايا كنسية ورسالة منه الى البابا . وكتب فوطيوس رسالة ملأى بالمحبة المسيحية . فلما تسلم نيقولاووس هذا البريد ولم يجد فيه ما تمنى من حيث الابرشيات المساوخة وغيرها ألغى عمــل نائبيه وعقد مجمعاً محلياً (٨٦٣) واتخذ لنفسه ولمجمعه المحلي صلاحية النظر في امور الكنيسة القسطنطينية الداخلية وفي قرارات المجمع الاول الثاني الذي كاد يكون مسكونياً وحكم على فوطيوس وقطعه واعترف باغناطيوس بطريركاً قانونياً وهدد باللعنة والحرم كل من يتجاسر ان يخالف هذا القرار . وكتب بذلك الى الامبراطور فأجابه هذا بكتاب مرّ « اوجب » به التراجع عن قطع فوطيوس ورفض رفضاً باتاً سلطة رومة (١) . وممــا زاد العلاقات تعقداً ان الامبراطور والبطريرك كانا قــد نجحا في نشر الدين المسيحي في مورافية وروسية وبلغارية . فهال رومة أمر هذا الاتساع المفاجىء في سلطة البطريرك المسكوني فبثت دعاتها في بلغارية موجبة الخضوع لهــا . فثار ثائر الامبراطور والبطريرك . والتأم مجمع قسطنطيني في السنة ٨٦٧ برئاسة الامبراطور فقطع اعضاؤه بالاجماع نيقولاووس الاول ونبذوا القول بالانبثاق من الآب والابن واعتبروا تدخل رومة في شؤون كنيسة القسطنطينية عملاً غير قانوني وأعلموا البطاركة الشرقيين بذلك كله (٢) .

1) *Epist. Nicolai. 86, 98 ; Mon. Germ. Hist. VI, 454 ff, 488 ff ; Dolger, Reg. 464.*
2) *Grummel, Reg. 481.*

ثم اغتيل ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ ورقي عرش الاباطرة باسيليوس الاول فدخل الروم في دور من العز عظيم . فنجح باسيليوس في دفــع المسلمين الى الوراء في سوريا والجزيرة وأصبح سيد جبال طوروس وممراتهــا . وأدرك خطورة الموقف في البحر المتوسط وفي الغرب . فالسيادة على هذا البحر كانت قد استقرت في يد المسلمين . وكان هؤلاء قــد استقروا في صقلية وجنوب ايطالية وظهروا امام رومة نفسها . ولم يقو اللومبارديون على الصمود في وجههم فأم القسطنطينية وفدان احدهمــا مثل الامبراطور الغربي والثاني البابا ليحثا الامبراطور على صيانة النصرانية في الغرب ففعل . فقضت هذه الظروف السياسية بالتفاهم بين رومة القديمــة ورومة الجديدة فأكره باسيليوس البطريرك فوطيوس على التنحي عن السدة القسطنطينية (٨٦٧) وأعاد اغناطيوس اليها . ثم طلب الى البابا ان يرسل من يمثله في مجمع مسكوني . فوافق ادريانوس الثاني والتأم في القسطنطينية مئة اسقف (٨٦٩) قطعوا فوطيوس . ويلاحظ هنا ان ممثلي ادريانوس رغبا في اعتبار فوطيوس مقطوعاً بالقرار الذي كان قد صدر عن مجمع رومة . امــا باسيليوس فانه أصر على وجوب عرض هذا الأمر نفسه على المجمع الجالس برعايته وان يصدر الحكم عن هذا المجمع لا عن مجمع رومة فوافق الممثلان الرومانيان على ذلك وايدهم فــيه ادريانوس نفسه . ويلاحظ ايضاً ان هــذا المجمع نفسه نظر في القضية البلغارية قبل انفضاضه فأقر خضوع الكنيسة البلغارية لكرسي رومة الجديدة لا القديمة على الرغم من احتجاج الوفد البابوي . ويلاحظ كذلك ان ممثلي البطريركيات الشرقيــة الثلاث ايدوا رومة الجديدة في هذا كله لا رومة القديمة (١) .

وتوفي البطريرك اغناطيوس في خريف السنة ٨٧٧ فلم ير الامبراطور بدّاً من اعادة فوطيوس الى السدة المسكونية ليتابع السياسة نفسها التي كان قد اختطها من قبل . فرومة القديمة أصرت على موقفها من كنيسة بلغارية والتعاقد مع امراء الغرب في ايطالية لم يات بالفائدة المنشودة . وفي السنة ٨٧٩ دعا باسيليوس الى

1) *Ostrogorsky, G., The Byzantine state, (1958), 208 ; Mansi XVI, Col 16-207.*

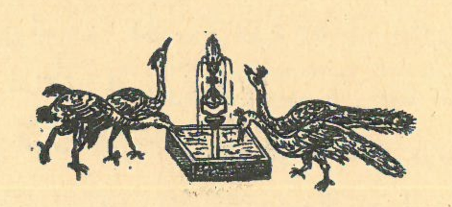
مجمع مسكوني عام لاعادة النظر في قضية فوطيوس . فأوفد البابا يوحنا الثامن من مثله واجتمع في القسطنطينية واحد وثمانون مطراناً ومئتان وسبعون اسقفاً . فوافق الآباء على براءة فوطيوس ممـا نسب اليه وكسروا قرارات المجمع الذي انعقد في السنة ٨٦٩ وتلوا قانون الايمان كمـا اقره الآباء في المجمعين المسكونيين الاول والثاني اي بدون العبارة « والابن » واعتبروا بابا رومة بطريركاً كسائر البطاركة يتقدم غـيره في الكرامة ولكنه لا يتسلط على الكنيسة جمعاء ولا يثبت انتخاب البطريرك المسكوني (١). فثار ثائر البابا وأوفد الى القسطنطينية من احتج على كل ما جاء في اعمال هـذا المجمع ضد رومة وطالب بامتيازات في بلغارية . فأوقف باسيليوس الرسول الروماني واودعه السجن . ووقفت رومة عند هذا الحد . ولم ينشأ اي انشقاق فوطيوسي ثان كما كان يظن سابقاً (٢) .

ودخل الروم في القرن العاشر في عصر ذهبي جديـد . وتولى العرش الامبراطوري رجال أفذاذ تمكنوا من توطيد السلطـة واحراز النصر فدخلت قيليقية وشمال سورية وانطاكية في حوزتهم وكذلك قبرص وكريت . ثم بسطوا سلطانهم على شبه جزيرة البلقان . وأصبح الروم أعظم قوة عسكرية بحريـة في الشرق والغرب معاً . وفيما هم فاعلون سطا اوتون الالماني على ايطاليا وادعى حق السلطة على جميع انحائها . وكانت كنيسة رومة قد دخلت في محنة مؤلمة فرقي سدتها في السنة ٩٥٥ يوحنا الثاني وهو لا يزال في الثامنـة عشرة فلجأ الى اوتون الاول وجعل منه في السنة ٩٦٢ « امبراطوراً رومانياً مقدساً » فأثـار بذلك سخط نيقوفوروس الامبراطور الجالس في القسطنطينية ذا الفتوحات العظيمة . ولم يرض اوتون الاول عن سياسة البابا الشاب يوحنا الثاني عشر فاكرهه على الخروج من رومة في السنة ٩٦٣ وأجلس محله لاوون الثامن وجعله يرقى درجات الكهنوت كلها في يومين . وجاء يوحنا الثالث عشر صنيع اوتون يحـاول التقريب بين الامبراطورين فأوفد الى القسطنطينية من يخطب اميرة شرقية لامير غربي ابن اوتون

1) *Vasiliev, A. A., The Byzantine Empire, 330 - 331 ; Hergenrother, J., Photius, II. 462, 524.*

2) *Dvornik, F., The Photian Schisan, 202 - 236.*

وكتب بذلك الى نيقوفوروس فجعل الامبراطور الشرقي « امبراطور اليونان » واحتفظ باللقب « امبراطور الرومان » لاوتون سيده ! فاغتاظ نيقوفوروس ورد الطلب مؤكداً سلطته على جميع ايطالية وحرم بواسطة البطريرك المسكوني استعمال اللاتينية في الكنائس الايطالية الخاضعـة للكرسي القسطنطيني (١) . وأمسى بابا رومة خصماً سياسياً لا بد من مقاومته . وحدث مثل هـذا في عهد الامبراطور باسيليوس الثاني . فالبابـا بندكتوس الثامن (١٠١٢ ــ ١٠٢٤) الذي كان مديناً بتبوئه السدة الرومانية لهنريكوس الثاني امبراطور الغرب اهدى سيده هـذا كرة ذهبية يعلوها صليب رمز السلطة العالمية . فأعتبر باسيليوس اقدام البابا على صنع هذه الكرة وتقديمها الى هنريكوس عملا عدائياً . وشاركـه البطريرك المسكوني هـذا الشعور .

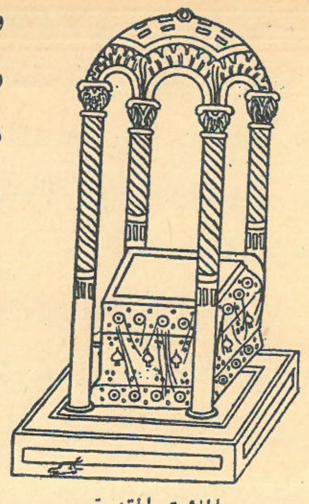


1) *Liutprand, Relatio, 47 - 52 ; Jaffé - Watoenbach, 3727 ; Vasiliev, A. A., Byzantine Empire, 336.*

تباعد وتراشق وحرب صليبية

وفي السنة ١٠٤٣ رقي السدة المسكونية البطريرك ميخائيـــل الاول (كيرولاريوس) اشد البطاركة القسطنطينيين شكيمة وأصعبهم مراساً وأوسعهم مطمعاً . فانه كما سبق وأشرنا ، لم يكتف باستقلال السلطتين الزمنية والروحيـة وتآلفهما وتعاونهما بل طمع باكثر من هذا فاحتذى الارجواني لون السلطة والسيادة الزمنيــة وقال ان الكهنوت اشرف من الملك فاستحق تأنيب بسلوس . وعلا السدة الرومانيــة في السنة ١٠٤٨ لاوون التاسع مرشح الامبراطور الغربي الطامع في ايطالية هنريكوس الثالث . وكان هذا الامبراطور قد تجول في جنوب ايطالية في السنة ١٠٤٧ فاعترف بحق شرعي للنورمنديين في الاماكن التي سطوا عليهـــا فنهج بذلك نهجــاً مضراً بمصالح الروم . وهب لاوون لاصلاح الكنيسة واهتم لتثبيت السلطة فيها وعاونـــه في ذلك رهبان كلوني . وكان هنريكوس يعطف على هؤلاء فلما تسربوا الى الأبرشيات الايطالية الخاضعة للكرسي المسكوني ارتاب البطريرك ميخائيل في أمرهم . فكتب في السنة ١٠٥٣ بالاشتراك مع متروبوليت اوخريدة الى رئيس اساقفة تراني (اوترانتو) ينبهه على حفظ التعاليم الارثوذكسية ورغب اليه ان يطلع اساقفة الغرب على موضوع هــذه الرسالة وفحواها . فلما وصلت الرسالة الى رئيس اساقفة تراني كان عنده الكردينال هومبرتو . فلما وقف على رسالة البطريرك ترجمها الى اللاتينية ونقلها الى البابا لاوون التاسع . فكتب لاوون التاسع الى القسطنطينية يوضح رغبته في السلام ويطالب بالسلطة على ايطاليـة وكنائسها وعلى الكنائس الشرقية ايضاً مستنداً في ذلك الى منحة قسطنطين المزورة. فامتعض البطريرك والامبراطور ولكن خطر النورمنديين اضطرهما الى المفاوضة فطلبا ارسال وفد الى القسطنطينية . فأرسل البابا احد الكرادلة هومبرتو ورئيس اساقفة بطرس والكنكيلاريوس فريدريكوس. وحمل هذا الوفد المفاوض رسالتين واحدة

الى الامبراطور توجب التعاون لدفع الخطر النورمندي وتطلب ابرشيات بلغارية وايليرية وايطالية الجنوبية والاعتراف بسلطة رومة وواحدة الى البطريرك المسكوني تتهمه بارتقاء الكرسي دون الترقي في كل الدرجات وبالطمع في السيطرة على انطاكية والاسكندرية وتوبخه على ما كتبه ضد بعض الممارسات الرومانية . وكان ينقص هومبرتو شيء كثير من اللطف والوداعـــة والكياسة فرفض البطريرك المسكوني مواجهة هذا الكردينال ومنعه من اقامة الخدمة في ابرشيته وافاد ان القضية تستوجب نظر مجمع مسكوني . فحرم الكاردينال باسم البابا لاوون التاسع البطريرك المسكوني وكل من يوافقه (١٦ تموز ١٠٥٤) ووضع الحرم على المائدة المقدسة في كنيسة الحكمة الالهية في اثناء اقامة القداس الالهي . فحرم البطريرك المسكوني الحرم البابوي والذين كتبوه والذين يوافقون عـليه . وأيد المجمع القسطنطيني قرار البطريرك بالسيميومة « *Semeiouma* » اي الحاشية التي اتخذها في الرابـــع والعشرين من الشهر نفسه وكتب ميخائيل الاول الى بطرس الثالث بطريرك انطاكية يعلمه بمـا جرى (١) ويرجوه الاتصال بالبطريركين الاوروشليمي والاسكندري ليحضهما على الدفاع عن استقامة الرأي .


المائدة المقدسة

فذكّر بطرس الثالث بالمحبة ونصح بالتغاطي عن كل شيء ما عدا القول بالانبثاق من الآب والابن فانه راى فيه « شراً عظيماً يستحق الاناثيما » . وكان بطرس قد قال برئاسة البطريركيات الخمس وصارح رومة بذلك في رسالة الجلوس التي وجهها الى البابا لاوون التاسع . وأكـد ذلك مرة ثانية في الرد على رسالة وجهها اليه دومينيكوس رئيس اساقفة اكويلة واتخذ فيها هذا لنفسه لقب بطريرك فقال بطرس ان لقب بطريرك هو لقب رئيس كنيسة انطاكية اما رئيس كنيسة رومة ورئيس كنيسة الاسكندرية فـان لقبهما هو بابا وان لقب رئيسي كنيستي

1) *P. G., Vol 120, Cols. 815 - 820.*

القسطنطينية واورشليم هو رئيس اساقفة وانه لا يجوز ان يكون في الكنيسة اكثر من هؤلاء الخمسة « ما دام الجسد لسيت فيه حاسة سادسة » (١). ووقفت كنيسة اورشليم موقف شقيقتها كنيسة انطاكية فشجبت الاضافة الى دستور الايمان والقول بانبثاق من الآب والابن وصنف سمعان الثاني بطريركها رسالة بهذا المعنى(٢). وقد اوضح العلامة الالماني ميشال أمر هذه الرسالة واكد انها من قلم البطريرك سمعان وتعود الى القرن الحادي عشر (٣) . ولا نعلم شيئاً عن كنيسة الاسكندرية في هذه الفترة ولا يجوز التكهن عند سكوت المصادر !

ويلاحظ هنا ان حرم هومبرتو لم يشمل الكنيسة الارثوذكسية باسرها وانما اطلق ضد بطريرك واحد وانه أعلن بعد وفاة لاوون التاسع وانه لم يصدق على هذا الحرم احد من الباباوات التابعين (٤) ! وان السيميومة لم تشمل الكنيسة الرومانية بأسرها ولم تذكر احداً من رؤسائها .

وحرم هومبرتو والسيميومة في نظرنا عرض من اعراض علة مزمنة كانت ولا تزال تنتاب الكنيسة الجامعة . فكنيسة رومة ما فتئت منذ القرون الاولى تطالب بالسلطة لا التقدم في الكرامة فقط وكنائس الشرق ما فتئت منذ القرون الاولى ترد هذا الطلب مؤكدة تساوي الرسل والاساقفة والبطاركة مبينة ان السلطة العليا في الكنيسة هي في يد المجمع المسكوني وان المجامع المسكونية اجمعت على هذا الموقف من رومة .

ثم جاءت موقعة ملاذكرد الشهيرة في آب السنة ١٠٧١ وانتصر الاتراك السلاجقة في آسية الصغرى انتصاراً حاسماً ووقع الامبراطور رومانوس اسيراً في يدهم فكتب خلفه ميخائيل السابع الى غريغوريوس السابع بابا رومة يطلب المعونة من الغرب للدفاع عن الكنيسة والدولة في الشرق ويعد بالسعي لاعادة العلاقات بين فرعي الكنيسة الى ما كانت عليه . فوافق البابا ولكنه اعلن في السنة ١٠٧٦

1) *P. G., Vol. 120, Col. 757.*
2) *Leib, B., Deux Inedits Byzantins, Or. Christ., IX, 85 - 107.*
3) *Michel, A., Amalfi und Jerusalem, Or. Christ., 121, 34 - 47.*
4) *Jugie, M., Schisme Oriental, 230.*

الديكتاتوس الشهير « *Dictatus Papae* » واستقل برايه في الباباوية والكنيسة وانفرد به دون اخوانه البطاركة الاربعة ودون عرضه على مجمع مسكوني فباعد وانحرف وزاد الشقاق اتساعاً . وتألف هذا الديكتاتوس من سبعة وعشرين بنداً ملؤها تعظيم الحبر الروماني وحصر السلطة في يده : ان الكنيسة الرومانية وحدها مقامة من الله والحبر الروماني وحده يستحق اللقب المسكوني ونائبه يتقدم سائر الاساقفة في المجمع ولو كان دونهم رتبة . وهو وحده يسن شرائع جديدة وهو الرجل الوحيد الذي يقبل الامراء رجله وهو الوحيد الذي يجب ذكر اسمه في جميع الكنائس وحكمه لا يرفض وهو وحده يقدر ان يرفض احكام الجميع وكنيسته لم تغلط ابداً ومن لا يوافق الكنيسة الرومانية لا يكون ابن الكنيسة الجامعة (١) .

ووجه مناوىء البابا غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٠ رسالة الى يوحنا متروبوليت كيف راجياً تدخله في القسطنطينية للاعتراف به بطريركاً وباباً على رومة . فكتب متروبوليت كيف يأسف لانحراف رومة عن قرارات المجامع المسكونية في امور أهمها القول بالانبثاق من الآب والابن ونصح الى اقليمس ان يرسل من يمثله الى القسطنطينية ليعلن انسجامه مع التقليد القويم .

وفي السنة ١٠٩٠ كتب الشماس نيقولاووس الى ثيوفيلاكتوس متروبوليت اوخريدة يسأل رايه في اخطاء اللاتين . فأكد هذا الحبر العلامة ان بعض الاخطاء التي تنسب الى اللاتين ليست مهمة وآلمه جداً ان يستمر الروم في التفتيش عن اخطاء غيرهم ولكنه خشي ان يؤدي ادعاء رومة بالسطلة وخروجها عن قرارات المجامع المسكونية في أمر الفيليوكوي الى انشقاق أليم واضاف في مناسبة اخرى انه من الهزء ببطرس الرسول ان نستند الى سلطة مستمدة منه لنعلن عقيدة لم تقرها المجامع المسكونية (٢) .

ثم هيأ الله في هذه الفترة رجلاً باراً هو البابا اوربانوس الثاني (١٠٨٨ —

1) *Peitz, W., Das Originalregister Gregors VII, 265 ff ; Hofmann, K., Der Dictatus Papae, (1933).*
2) *P. G., Vol. 125, Cols 221 - 241.*

١٠٩٩) فلوى العنان وردّ الجماح وواصل وأحسن الصلة . ووافق ظهوره وصول الامبراطور اليكسيوس الى العرش . وكان هذا مثقفاً متضلعاً من الفلسفة واللاهوت دمث الاخلاق سلساً يؤثر السياسة على العنف . وكان البطريرك المسكوني نيقولاووس الثالث النحوي (١٠٨٤ – ١١١١) عالماً كبيراً وراهباً باراً وديعاً تقياً فعادت المياه الى مجاريها وحلّ الوفاق والوئام محل التراشق والتخاصم .

ولمس اوربانوس الخطر التركي الذي كان يهدد الكنيسة في الشرق فلبى طلب اليكسيوس ودعا الى الحملة الصليبية الاولى وأوجب على ممثله فيها وعلى امرائها احترام السلطات الروحية في الشرق واعادة الاوقاف اليها . وهبّ سمعان الثاني البطريرك الاورشليمي اللاجيء آنئذ الى قبرص الى التعاون مع الصليبيين بكل ما اوتي من مقدرة وحكمة . ولدى استيلاء الصليبيين على انطاكية أسرع زعماؤهم الى الافراج عن البطريرك الانطاكي يوحنا السابع والى اعادته الى سابق حريته وكرامته . وأمروا بتنظيف كندرائية انطاكية وكنيسة السيدة فيها مما لحق بهما من الاقذار في عهد السلاجقة. ثم ترأس يوحنا السابع حفلة التطهير والتكريس واشترك معه اساقفة اللاتين وكهنتهم. وبعد ذلك بقليل استولى ريموند امير تولوز على البارة واراد ان يحولها الى مدينة مسيحية ورشح بطرس النربوني لاسقفيتها فسامه اسقفاً البطريرك الانطاكي يوحنا السابع .

وتوفي اوربانوس الثاني في تموز السنة ١٠٩٩ . وكان بوهيموند الامير الصليبي منهوماً بالسلطة طامعاً في امارة انطاكية . وكان الامبراطور اليكسيوس شديد الحرص على اعادة هذه الامارة الى الروم . فلجأ بوهيموند الى بطرس برشلاوس فزعم هذا ان اندراوس ظهر له وانه أمره ان يقول الى بوهيموند ان انطاكية له ما دام تقياً صالحاً وانه لا بد من مقاطعة الروم وكنائسهم وانتخاب بطريرك لاتيني على كنيسة انطاكية . ووقع بوهيموند اسيراً في يد الاتراك في تموز السنة ١١٠٠ فتجنى على البطريرك الانطاكي يوحنا السابع ورماه بالتواطؤ مع الاتراك واكرهه على الخروج من انطاكية . ثم جعل من برناردوس

والنسية اسقف ارتاح بطريركاً لاتينياً على انطاكية . ولا صحة في القول بأن يوحنا السابع استقال فنصب برناردوس . فيوحنا السابع لم يستقل قبل وصوله الى القسطنطينية واستقالته هذه ارتبطت منذ لحظتها الاولى بانتخاب خلف ارثوذكسي له هو يوحنا الثامن . وكان سمعان الثاني بطريرك اوروشليم قد فر من جور الاتراك السلاجقة هو واساقفته الى قبرص . وكان ايضاً قد توفي قبيل استيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة . فأقام الصليبيون بطريركاً لاتينياً هو ارنولفوس روهيز . وكان هذا واعظاً واديباً ولكنه لم يكن زاهداً تقياً فأبعد الكهنة الارثوذكسيين عن كنيسة القبر واضطهد وعذب فاثار غضب الشعب الارثوذكسي وكهنته . واعتبر الامراء والبطاركة الصليبيون الارثوذكسيين ابناء الكنيسة الجامعة فاخضعوهم لسلطة اساقفة اللاتين وفرضوا عليهم العشر كسائر المسيحيين اللاتينيين ولم يبق في الامارات الصليبية هيرارخية ارثوذكسية شرقية ولكن رقعة هذه الامارات كانت ضيقة ولم تشمل جميع الابرشيات الانطاكية فظل هنالك اساقفة ارثوذكسيون في مدن دمشق وحمص وحماه وحلب وسائر المشرق وظل على رأسهم بطريرك ارثوذكسي شرعي نافر من احكام الامراء الصليبيين وبطاركتهم ورئيسهم بطريرك وبابا رومة . وهكذا فان الحرب التي أرادها اوربانوس الثاني وسيلة للدفاع عن الكنيسة الشرقية ولتنشيطها أمست في عهد خلفائه الاقربين اداة ذلال لها وتشويه وتخريب .

وفي السنة ١١٩٨ رقي السدة الرومانية انوشنتش الثالث : وهاله ما حل بالامارات الصليبية من تقلص في حدودها وضياع لهيبتها وعلم بتفكك الدولة الايوبية فرغب في حملة صليبية رابعة ودعا اليها وشوّق وأحبها حملة عامة يشترك فيها جميع المسيحيين في غرب اوروبة وشرقها . وعلم الامبراطور اليكيوس الثالث بما خالج فؤاد هذا البابا وبالنفور الذي باعد بينه وبين امبراطور الغرب فكتب اليه « في امبراطورية واحدة وكنيسة واحدة » . ولكن انوشنتش لم يرض عن امبراطور شرقي ارثوذكسي فردّ يفاوض في اتحاد الكنيستين فتباطأ الامبراطور فأنذر انوشنتش انه اذا قاوم الامبراطور أمر اتحاد الكنيستين أيد البابا حق اسرة

اسحق الضرير في عرش القسطنطينية (١) فغضب الامبراطور وقــال ان السلطة الامبراطورية اعلى من السلطة الروحية (٢) ومضى انوشنتش في الدعوة الى حملة صليبية رابعة فاعرض عنهــا فيليبوس ملك فرنسة ولم يعرها يوحنا ملك انكلترة اهتمامه . ولم يتطوع لها من الملوك سوى ملك المجر والدوج هنريكوس دندولو رئيس البندقية . وكان دندولو أبعد الناس عن الروحيات ولم ير في الحملة الرابعة المقترحة سوى وسيلة لتوسيع نفوذ حكومته في الشرق وضمان الارباح التجارية . وكان داهية دهماء وكان لدولته ما لم يكن لغيرها من السفن والمال. فاتجه الصليبيون شطر القسطنطينية عاصمة النصرانية في الشرق وحاربوها باسم الصليب ودخولها في السنة ١٢٠٤ وانتهكوا حرمة كنائسها ونهبوا ذخائرها وجواهرها وحطموا مذابحها الثمينة ودنسوا هياكلها وجاءوا براقصة واجلسوها على كتدرا الحكمة المقدسة. واقاموا بطريركاً لاتينيــاً على القسطنطينية وامبراطوراً لاتينياً ايضــاً يدعى بلدوين . وكتب هــذا الى انوشنتش معلنــاً ارتقــاءه عرش القسطنطينية « بنعمة الله » ! فأجابــه بابا رومة مبتهجاً للاعجوبــة التي تمت لتمجيد اسم المسيح واعلاء شأن العرش الرسولي وتعظيم الشعب المسيحي » ! (٣) وكتب هذا البابا نفسه ثانية فقال : « لقد سرنا بكل تأكيد رجوع القسطنطينية الى طاعة امهــا الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ولكننا نسر أكثر اذا عادت اوروشليم الى سلطة الشعب المسيحي » (٤) . ومما قاله ايضاً عن سقوط القسطنطينية ان هــذا السقوط يسهل استرجاع الاراضي المقدسة من يد غير المؤمنين (٥) .

وحزّ هذا الهجوم والتهجم باسم المسيح في صدور حكام الروم ورؤسائهم وجمهور شعبهم ولا سيما وانه نال موافقة بابا رومــة وبركته . فأوغر الصدور وأضرم الغيظ ونغل القلوب وجعل من كنيسة رومــة خصماً كاشحاً وعدواً

1) *Epistolae V, 122 ; P. L. Vol. 214, Cols. 1123 - 1124.*
2) *Ibid., Cols. 1082 - 1083.*
3) *Tafel und Thomas, Urkunden zur Altern Handels und Staatsgeschichte I, 502, 516 - 517.*
4) *P. L., Vol. 215, Cols. 957 - 958 ; Epist. IX, 139.*
5) *Epist. VII, 153 ; P. L., Vol. 215, Col., 455.*

فاشيــاً . وعبثاً حاول انوشنتش ترقيع الطابق لانه أصر على اعتبار الحملة الصليبية الرابعــة اداة حق في الاقتصاص من الروم لانهم لم يعترفوا بسلطــة رومة (١) .

ولدى استيلاء اللاتين على القسطنطينية قامت في نيقية حكومة ارثوذكسية بزعامــة اسرة اللاسكرة . واستقال البطريرك المسكوني يوحنا العاشر في السنة ١٢٠٧ واستخف الروم بالبطريرك اللاتيني توما موروسيني « لجهله وحقارته » (٢) فاقاموا ميخائيل الرابع بطريركاً مسكونياً في نيقية . وتقوت هذه الدولة الجديدة بسرعة شديدة . ولم يكتب للامبراطورية اللاتينية التي قامت في القسطنطينية عمر طويل . فانها كانت منذ نشأتها اقطاعية ضعيفة في الحرب والسياسة . وكانت مقسمة الولاء في الدين ينقصها الشيء الكثير من توحيد الكلمة. فرعايا الامبراطور اللاتيني ظلوا ارثوذكسيين يوالون البطريرك المسكوني في نيقية وكذلك رجال الدين بينهم .

وسقطت الامبراطورية اللاتينية في الخامس والعشرين من تموز سنــة ١٢٦١ ونودي بميخائيل الثامن باليولوغوس امبراطوراً . وفتح الباب الذهبي الذي سده الافرنج ودخل ميخائيل العاصمة منــه . وصعد متروبوليت كيزيكوس الى احد الابراج حاملا ايقونة العذراء وصلى على مسمع من الجماهير ثلاثــة عشر افشيناً . وكان ميخائيل يكشف راسه ويركع على الارض عند تلاوة كل افشين وينهض وينهض الشعب معــه صارخين كيريه ايلايصون . ثم ذهب الامبراطور الى كنيسة الحكمة المقدسة وصلى وشكر .

ووصل اوربانوس الرابع الى السدة البابوية في السنة ١٢٦١ ايضاً ورغب رغبة شديدة في اعادة اللاتين الى سابق حكمهم في القسطنطينية . فتقرب ميخائيل الثامن من البابا الجديد واغراه باتحاد الكنيستين فعدل اوربانوس عن فكرة الحملة

1) *Epist. XI, 47.*
2) *Nicetas, Hist., 854 - 855.*


امبراطور القرن الثالث عشر

على القسطنطينية ولكنــه توفي (١٢٦٤) قبل ان يتم شيء من امر المفاوضات في الاتحاد. وخلف اوربانوس الرابع اقليمس الخامس فلجأ هو ايضاً الى التهديـد باستعمال القوة العسكرية اذا أصر الروم على موقفهم التقليدي من رومة ومطالبها. وعضد هـذا البابا كارلوس آنجو في مطامعه في صقلية والشرق فاضطر ميخائيل الثامن ان يلجأ الى لويس التاسع ملك فرنسـة راجياً وضع حد لمطامع اخيـه كارلوس آنجو في ممتلكات الروم مؤكداً استعداده للتفاوض في امر الاتحـاد: فأحال لويس الاقتراح الى مجمع الكرادلـة واوقف اخاه عن القسطنطينية ووجهه شطر تونس. وتوفي لويس التاسع في السنة ١٢٧٠ فعادت مطامع كارلوس اليه. ورقي السدة الرومانية غريغوريوس العاشر وكان اقل تطرفاً من سلفائه الاقربين في موقفه من الكنيسة الارثوذكسية فهب ميخائيل الثامن يبث الدعايـة للاعتراف بسلطة البابا ولكن دعايته قوبلت بمقاومة شديدة في معظم الاوساط الاكليريكية والشعبية. وجل ما توصل اليه ميخائيل انــه استمال احد علماء اللاهوت يوحنا فقس وعدداً يسيراً جداً من الاساقفة. فدعا غريغوريوس الى مجمع مسكوني في ليون في السنة ١٢٧٤ وحضره وفـد ارثوذكسي وأعلن رسمياً اتحاد الكنيستين في السادس من تموز سنة ١٢٧٤. وأقام ميخائيل حفلة دينية ابتهاجاً بهـذا الاتحاد ولكنه خشي غضب الشعب فأقام حفلته « السياسية الدينية » في كنيسة في القصر لا في كتدرائية الحكمة المقدسة. واستقال البطريرك المسكوني يوسف احتجاجاً على خرق التقليد الرسولي والخروج على مقرارت المجامـع المسكونية. وقرّعت افلوجية اخاها ميخائيل على ما جرى. وضج بعض الامراء فأمر ميخائيل بحبسهم فانعقد مجمع ارثوذكسي محلّي في ثيسالية لتوبيخ الامبراطور وتكديره ولقطع

فقس الذي قال بالاتحاد كما ارادته رومة (١).

وأقلق تقدم الاتراك العثمانيين الروم وحار الاباطرة في امرهم. فطلبوا المعونة من الغرب لصد هذا التقدم وللمحافظة على النصرانية في الشرق. وفاوضوا البابوات مراراً طوال القرن الرابع عشر فكان الجواب واحداً لا يتغير الاعتراف بسلطة رومة! وكان موقف الاكليروس الارثوذكسي والشعب واحداً ايضاً: لا نخترق التقليد الرسولي ولا نخرج على مقررات المجامع المسكونية! وتضاءلت دولة الروم في القرن الخامس عشر فلم تعد تشمل سوى القسطنطينية وضواحيها ثم بعض الاراضي الضيقة في ساحل البحر فجبل آثوس فثيسالونيكية فميسترة وميزنبوية وانخيالوس. وعظم على الامبراطور يوحنا الثامن (١٤٢٥ـ١٤٤٨) سقوط ثسالونيكية في يد الاتراك وافزعه تقدم السلطان مراد العثماني وانتصاره فهرع يرمم حصون العاصمة. وقام في الغرب آنئذ من طالب باصلاح الكنيسة رأساً وجسماً والنظر في هرطقة يوحنـا هوس فالتأم مجمع بازل (١٤٣١ ـ ١٤٤٨) للنظر في هذين الامرين الهامين. وعلم الآباء المجتمعون بفوز الاتراك وتقدمهم ففاوضوا الامبراطور يوحنا الثامن في كيفية التعاون بين النصارى للصمود في وجه الاتراك فقام الى بازل وفد ارثوذكسي وبات ينتظر البحث في التفاهم والاتحاد. ولكن اساقفة الغرب تشاحنوا في تعيين المكان الذي يلتئم فيـه مجمع مسكوني جديد ثم اتفقوا على ارجاء البحث في هذا التفاهم والتعاون الى ان يكونوا قد حلوا مشكلة يوحنا هوس وهرطقته. فغضب الارثوذكسيون لكرامتهم وانسحبوا (٢).

ولم يرض البابا اوجانيوس الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) عن مجمع بازل ولم يحضر اجتماعاته ولكنه اهتم لسير الحوادث العسكرية في البلقان اهتماماً كبيراً وفاتح الامبراطور يوحنا الثـامن كلاماً مستقلاً في الموضوع نفسه الذي فاوض بشأنه الاساقفة في بازل. فاقترح يوحنا عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية ولكن البابا رأى ان يعقد هذا المجمع في بلد ايطالي وسط بين الشرق والغرب ودعا الى مجمع مسكوني في فراري وقبل يوحنـا الثامن وترأس الوفد بشخصه وضم اليه اخاه

1) *Grummel, V., Après le Concile de Lyon, Echos d'Orient, 1925, 321 ff.*
2) *Pierling, L. P., La Russie et le Saint Siège, I, 11, 12, 15.*

والبطريرك المسكوني يوسف ومرقس متربوليت افسس وبيساريون العالم الاديب وسلبستروس سيروبولوس الذي أصبح فيما بعد مؤرخ هذا المجمع . واوفد امير الروس اسيذوروس رئيس اساقفة موسكو . وعارض الامبراطور عدد غير قليل من وجهاء الروم من رجال الدين والدنيا وا كدوا ليوحنا ان عمله هذا « سيؤدي حتماً الى ضياع الارثوذكسية النقية والى عودة اللاتين الى الحكم في الشرق بسابق فظاظتهم وجشعهم » . وافضل مثال على هذه المعارضة الكبيرة ما كتبه يوسف برينوس في ذلك العصر نفسه فانه قال : « ولا ينخدع احد منكم بالرجاء الفارغ بان جيوش الحلفاء الايطاليين سيجيئون الينا . وان هم تظاهروا بالدفاع عنا فانهم سيحملون السلاح للقضاء على مدينتنا وجنسنا واسمنا » . (١) وجمع يوحنا قبل ان يبرح القسطنطينية مجلساً من الوجهاء وبسط امامه وجهة نظره مجدداً فتجددت المعارضة في شخص جاورجيوس سكولاريوس وغيره . وأبدى البطريركيوسف رأيه فاذا به يعارض ايضاً واضطر يوحنا ان يستاذن سيده مراداً الثاني سلطان الاتراك فلم يوافق على خطة الامبراطور (٢) .

وفي اوائل اذار سنة ١٤٣٨ وصل الوفد الامبراطوري الى فراري وبدأت اعمال المجمع والح يوحنا ان يبحث المجمع السياسة والحرب اولا ولكن الاساقفة الغربيين رأوا غير ذلك . فبوشر في بحث نقاط الخلاف بين الكنيستين . وحصر البحث في نقاط اربع . في انبثاق الروح القدس واستعمال الفطير ونوع آلام المطهر ورئاسة البابا . وأكد مرقس متروبوليت أفسس ان القول بالانبثاق من الابن أمر أحدثته رومة . واحتدم الجدال في هذا وفي غيره في فراري وفي فلورنزة بعد انتقال المجمع اليها . وامتنع البطريرك المسكوني وغيره عن موافقة الاساقفة الغربيين . وأيد هؤلاء الامبراطور ومن شد ازره ولاسيما اسيذوروس رئيس اساقفة موسكو . وتوفي البطريرك المسكوني قبل الوصول الى نتيجة حاسمة . وانسحب متروبوليت افسس قبل انتهاء الاعمال . وثابر الامبراطور في تأييد الاساقفة الغربيين فاتخذت قرارات معينة وصيغ النص الذي يتعلق برئاسة البابا صيغة مبهمة فأعلن اتحاد الكنيستين في السادس من تموز سنة ١٤٣٩ (٣) .

1) *Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 781.*
2) *Brehier, L., Byzance, Vie et Mort, 493.*
3) *Hofmann, G., Epist. Pont. ad Conc. Spectantes, I - III, (1940 - 1946).*

وعاد يوحنا الثامن الى الشرق وعاد الوفد بأكمله . فالتف حول مرقس متروبوليت افسس عدد كبير من المعارضين ورجع عدد كبير ممن وقع صك الاتحاد عن تواقيعهم وأوقف امير الروس اسيذوروس ولقّبه بالذئب بدلا من الراعي . واجتمع بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم في مجمع محلي في اوروشليم سنة ١٤٤٣ وشجبوا قرارات فلورنزة ووصموها بالدنس والفساد « *miaria* » (١) ويرى بعض العلماء ان أقطاب الكنيسة الأرثوذكسية اجتمعوا في السنة ١٤٥٠ في كنيسة الحكمة الالهية فشجبوا الاتحاد ومن قال به (٢) . ويشك آخرون في صحة هذا الخبر وبينهم باباوني اليوناني ولبديف الروسي (٣) . ولكن ليس هنالك اي اختلاف في انه لدى سقوط القسطنطينية في يد الأتراك (١٤٥٣) رقي السدة المسكونية البطريرك جناديوس وان هذا البطريرك الذي كان قد اشترك في أعمال مجمع فلورنزة بصفته جاورجيوس سكولاريوس كان قد عاد عن قرارات فلورنزة .

* * *

1) *Allatius, L., Ecclesiae Occidentalis, III, (4), 939 ; Diehl, C., Europe Oriental, 363 - 364.*
2) *Draseke, J., Zum Kircheneinigungsversuch etc., Byz. Zeit., 1896, 580 ; Brehier, L., Attempts at Reunion, Cam. Med. Hist. IV, 624 - 625.*
3) *Vasiliev, A. A., Byz. Empire, 675.*

نحن والموارنة بألف خير

وعلى الرغم من هذا التراشق والتقاطع طوال القرون الحادي عشر حتى الخامس عشر فان الحواجز التي قامت بين الكنائس الأرثوذكسية والكنائس الغربية لم تبلغ بارتفاعها عنان السماء . فظل المسيح واحداً وظلت الأسرار واحدة وظلت الهيرارخيتان رسولتين معترفاً بهما في الشرق والغرب معاً . وظلت ظروفنا السياسية المدنية في الشرق تقضي بالتعاون وتبادل المحبة قدر المستطاع . ففي السنة ١٥٧٠ استولى اهالي بيروت على كنيسة الموارنة داخل السور في سوق ابي النصر وحولوها الى قيسارية تجارية . ولم يبق للموارنة في بيروت سوى كنيسة واحدة خارج السور كانت قد شيدت على اسم شفيع بيروت القديس جاورجيوس . ولما كانت هذه الكنيسة خارج السور وكانت أبواب البلدة تقفل عند غياب الشمس اجتمع الشيخ ابو منصور يوسف ابن حبيش الماروني الى شيوخ بيت الدهان الأرثوذكسيين واتفق وجوه الطائفتين على الاشتراك في كنيسة الموارنة خارج السور وفي كنيسة السيدة الأرثوذكسية داخل السور (١) . وفي السنة ١٥٨٧ تعاون الروم والموارنة في انشاء كنيسة مار عبدا في بكفيا باشراف الخوري انطون الجميل . فكان في الكنيسة مذبحان أحدهما في الجهة الشرقية الجنوبية باسم مار عبدا لبني الجميل الموارنة والآخر في الجهة الشرقية الشمالية باسم السيدة لبني ابي كلنك المعلوفيين الأرثوذكسيين . فكان كل يقيم الصلوات حسب طقسه (٢) . وكان من مظاهر هذا التفاهم والتعاون قيام دير مار الياس

١) تاريخ الازمنة للبطريرك اسطفانوس الدويهي (طبعة الاب توتل) ص ٢٧٠

٢) تاريخ الازمنة ايضاً ص ٢٨٦ ودواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف ص ١٨٤

الشوير الى جانب مار الياس الموارنة في السنة ١٥٩٠ . ولعل لاسرة بيت الجميل المارونية فضلا في وقف بعض الأملاك على رهبان الروم في هذا الدير . ولم ينقطع هذا التعاون في الشوير ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر جدد الموارنة كنيسة ديرهم فقدم المعلم اسعد رستم الأرثوذكسي وقته وحذقه في صناعة النحت والبناء مجاناً وانشأ الحنية والمذبح في الكنيسة الجديدة كما فعل قبل ذلك في دير اللويزة وفي دير مار بطرس في بيت شباب . وكنيسة السيدة في بسكنتا التي شيدت في مطاوي القرن السابع عشر ظلت مشتركة بين الروم والموارنة الى ان شيد الأرثوذكسيون كنيسة مار ماما في حوالي السنة ١٧١٦ (١) .

وفي خريف السنة ١٦٤٢ « أدعى الشيخ احمد ابن الأمير ابي بكر الشهير بابن الحمراء المتولي بموجب أمر شريف سلطاني على مقامات حضرة الخضر الياس عليه السلام ان الكنيسة المعروفة بمار جرجس الكائنة بنهر بيروت كانت مقام الخضر فاتخذته النصارى كنيسة وأحدثوها متعبداً لهم وان المدعي عليه المطران يوحنا ياسف الملكي (٢) متخذها الآن متعبداً وهي بيده ويتصرف بوقفها وطلب المدعي منع المطران المذكور من الكنيسة المرقومة واخراجه منها . فسئل منه (اي المطران) عن ذلك فأجاب بأنها كنيسة « أهل الذمة والموارنة » منذ قديم الزمان ولم تحدث ولا جددت . وبعد ان عجز المدعي عن اثبات مدعاه وحضر كل من محمد بن عبدالله وجمال الدين بن محمد الغزيري وشهاب الدين بن ناصر الدين الخراط البيروتي وشهدوا غب الاستشهاد الشرعي بأنهم يعرفون الكنيسة المزبورة منذ عمرهم كنيسة « للنصارى الموارنة والملكية » متعبداً لهم يتعبدون فيها من قديم الزمان وبعد التفتيش والاستفسار من الثقاة الأخيار والجم الغفير والجمع الكثير أبقى مولانا الحاكم الشرعي المشار اليه (سليمان القاضي بمدينة طرابلس) يد المدعى عليه المطران يوحنا الملكي المذكور على الكنيسة المرقومة » (٣) هذا بعض ما جاء

١) دواني القطوف ايضاً ص ١٨٤

٢) ولعله الخوري يواصف البيروتي الذي سيم على بيروت وتوابعها في هذه الآونة على يد البطريرك افتيميوس الصاقزي .

٣) مجموعة السيد رزق الله عرمان (بيروت)

سليمان القاضي بطرابلس المحروسة



الحمد لله وحده — سبب تحرير هذا الوقيم الذي هو على نهج الشرع القويم انه حضر بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس المحمية اجلها الله تعالى لدى متوليه مولانا وسيدنا اعلم العلماء الاعلام تاج الموالي العظام الحبر البحر الهمام مؤيد شرع سيد الانام عليه افضل الصلاة واتم السلام الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم باعاليه دامت فضائله ومعاليه فخر الملة العيسوية الموارنة المطران يوحنا ولد يا... المتكلم على الكنيسة المعروفة بمار جرجس الكائنة بنهر مدينة بيروت شرقي المدينة المذكورة وقرر ان الكنيسة المرقومة من جملة الكنايس القديمة التي يتعبد فيها اهل الذمة النصارى الموارنة وان بعض جدارها وسقفها قد انهدم وهي محتاجة الى ترميم وتعمير وان بيده امرا شريفا سلطانيا مأذونا له فيه في الامر بترميمها وتعميرها وطلب من الحاكم الشرعي المشار اليه الاذن له بذلك فبعد ان ثبت لدى الحاكم الشرعي المشار اليه واتضح ووضح بين يديه بموجب حجة شرعية سابقة التاريخ على تاريخه وبالبينة العادلة والاستفسار من الثقاة الاخيار والجم الغفير والجمع الكثير ان الكنيسة المرقومة قديمة يتعبد فيها اهل الذمة النصارى الموارنة من قديم الزمان والى هذا الاوان من غير معارض لهم فيها ولا منازع مستمرة في ايديهم ثابتة على ملتهم واعتقادهم واطلع على الامر الشريف المشار اليه المبرز في المجلس لديه وعلى منطوقه وما يحويه اذن للذمي يوحنا المطران المذكور بترميم الكنيسة المرقومة واعادة ما انهدم من سقفها وبنا جدارها على ما هو مصرح فيه في الكتب المعتبرة من ان لاهل الذمة اعادة ما انهدم من كنايسهم وبيعهم لان استقرارهم عليها يدل على الاذن لهم باعادة ما انهدم منها اذنا شرعيا محررا معتبرا مرعيا اوقعه بالطريق الشرعي بالالتماس المرعي وجرى ذلك وحرر في اواسط شهر رمضان المعظم من شهور سنة اثنين وخمسين والف ...

فخر النواب المتشرعين مولانا داود افندي زيد فضله — مولانا صنع الله جلبي زيد فضله — مولانا محمد جلبي المقيد زيد فضله — مولانا الشيخ عبد القادر زيد فضله

في حكم رسمي صادر عن قاضي طرابلس يثبت تعبد الموارنة والروم في بيروت في كنيسة واحدة هي كنيسة مار جرجس النهر .

وفي هذا القرن نفسه وفي أواخر تموز السنة١٦٦٨ نجد فيليبوس متروبوليت بيروت يتولى المفاوضة والمرافعة عن الروم والموارنة أمام السلطات العثمانية في أمر الجزية المترتبة على الطائفتين . فقد جاء في صك قديم صادر عن السيد احمد الحسيني المولى بمدينة بيروت بتاريخ السابع عشر من صفر الخير سنة ١٠٧٩ للهجرة ما يلي :

« بمجلس الشريعة المطهرة الغراء بثغر مدينة بيروت المحمية أجله الله تعالى لدى مولانا متولي خلافة الموقع خطه الكريم اعلاه دام علاه حضر الى المجلس المومى اليه المطران فرح رئيس طائفة نصارى الروم بمدينة بيروت وأبرز من يده بيولردي شريف من حضرة امير الامراء الكرام الحاج اسحاق باشا يسر الله له من الخيرات ما يشاء وبيولردي ثانياً من حضرة شرمي محمد باشا المكرم وتسكين ممهورين أحدهما من حضرة عمر آغا المتكلم حالا والثاني من حضرة الحـاج عثمان آغا الضابط بمدينة بيروت حالا المقيدين في السجل المحفوظ من مضمونهم ان من العادة القديمة المترتبة على كنيسة طايفة الروم وعلى كنيسة طايفة الموارنة مال معين وهو بينهما بالنصف يدفعوه للحكام السابق عن كنايسهم الكائنة في داخل مدينة بيروت المزبورة وقـدره مايتي غرش بالمثناه كما تقدم لهم سابقاً بمدة توليـة سلامة القبالي وانطون ومراد اولاد كعيكات حال حياتهم وتكلمهم على كنيسة الموارنة المزبورة سابقاً وذلك بموجب بيولردي حضرة شرمي محمد باشا وتمسك حضرة عمر آغا المتسلم . ثم ان المطران فرح المزبور طلب من الحاكم الشرعي تمسكاً شرعياً على موجب ذلك فأجابه الى سؤاله . وعلى ما هو الواقع سطر وحرر غب الطلب والسؤال من المطران فرح المزبور ليكون تمسكاً بيده لوقت الاحتياج » (١) .

ولم ينحصر هذا التآلف والتعاون في بيروت وتلالها بل انه شاع حيث دعت الحاجة اليه في أماكن كثيرة واكتفت رومة ، فيما يظهر ، في القرون الخامس عشر والسادس عشر ومعظم السابع عشر بالمحافظة على طاعة الموارنة لها وقولهم

---

١) مجموعة السيد رزق‌الله عرمان (بيروت)

قولها في المسائل المتخلف فيها . وسكتت عن هـذا التعاون بين الروم والموارنة ولم تمنعه . وجل ما هنالك انهـا أوجبت في السنة ١٥٩٦ « البحث عن كتب الهراطقة (اليعاقبة) والمشاقين (الروم) وحفظها عند البطريرك في مكان مغلق . ولم تسمح بمطالعتها الا للعلماء »(١) ولعل السبب في مقاومة الحساب الغريغوري في بعض الأوساط المارونية والتجاء البطريرك يوسف الرزي الى علي يوسف باشا ليعاونه على أبناء رعيته يعود الى هذا الشعور بوجوب التعاون والتكاتف مع الروم (٢) فانه كان من الصعب آنئذ ان ينقسموا على أنفسهم في تاريخ أصوامهم واعيادهم أمام من كان على غير دينهم .

ثم ارسلت رومة رهبانها الى الشرق فتعاونوا مـع اساقفة الكنيسة الأرثوذكسية « وسلكوا في ما بين الرعية أحسن سلوك وتصرفوا أحسن تصرف ومدحوا طقوس الروم ورتبهم وعوائدهم وحثوا على طاعة هؤلاء الرؤساء . وفي أوائل القرن الثامن عشر « أظهروا أمراً من المجمع المقدس برومـيـة الكبرى وأشهروه في بلاد الشرق بأنه لا تجوز مشاركة الروم المشاقين في الصلوات ولا في القداسات ولا تناول الأسرار من يدهم اصلا . وهذا الأمر بما انه صعب ومشكك حصل منه سجس واختباط وبغض وتنافر بالكلية حتى انه سبب خصومة زائدة » هذا ما كتبه الياس فخر الطرابلسي الى بابا رومة بندكتوس الثالث عشر في منتصف نيسان سنة ١٧٢٥ . والياس فخر الطرابلسي من أعيان ذلك العصر اشتهر بمقدرته في الكتابة فترجم لقنصل انكلتره في حلب ودوّن للبطريرك سلفستروس. ورسالته هذه لا تزال محفوظة في ملف البطريرك كيرلس طاناس في محفوظات مجمع انتشار الايمان في رومة (٣) .

وهكذا فان كنيستنا الانطاكية الأرثوذكسية رحبت بادىء ذي بـدء بقدوم المرسلين اللاتين عملا بالتقليد المحلي الذي كان قد قربها من الكنيسة المارونية

1) *Constitutiones, 1579, Art. 6 ; Clercq, Ch., Hist. des Conciles, XI, 1575 1875, 21,*

٢) تاريخ الأزمنة للدويهي ص ٣٠٠

٣) تاريخ طائفة الروم الملكية للخوري قسطنطين الباشا ج ٢ ص ١٤٤ – ١٤٦

وجعل من الروم والموارنة صفاً واحداً في الدفاع عن الايمان والتقليد وحرية المعتقد. فلما دخلت رومة في دور التوسع فبسط السلطة وهدفت الى ادخال الطوائف المسيحية الشرقية في طاعتها ووكلت ذلك الى رهبانها الغربيين اللاتينيين تذرع هؤلاء بتعليم الصغار وتطبيب الكبار وما شاكل ذلك والقـوا بذور تعاليمهم بواسطة سر الاعتراف . فلم يطلبوا من السذج وجمهور المؤمنين ذوي الايمان القويم سوى ايمان آبائهم وقرارات مجامعهم . ولكنهم صارحوا المثقفين في ظروف معينـة وأوجبوا رجوعهم عن الخطأ . واليك ما كتبه أحد الآباء اليسوعيين في السنة ١٦٥٠ عن طريقتهم في اجتذاب النفوس :

« عندما يأتي ارثوذكسي ليعترف عندنا نسأله اذا كان يؤمن بما علم به الآباء اليونانيون باسيليوس واثناسيوس وغريغوريوس والذهبي الفم والدمشقي فيجيب نعم . فنسأله ما اذا كان لا ينبذ ويلعن كل تعليم لا يتفق ومـا علّم به هؤلاء الآباء القديسون فيجيب نعم . ولما كان دستور ايمانهم لا يختلف عن دستور ايماننا الا بالكلمة « والابن » ولما كنا نحن نعتبر هذه الكلمة مجرد تفسير للدستور فاننا نسأله ما اذا كان لا يفهم الدستور كما فهمـه آباء الكنيسة والمجامع المقدسة (!!) فيجيب نعم . وعندئذ يتلو الدستور ونحله . وجميع الأرثوذكسيين الأذكياء المتعقلين يعترفون بتقدم البابا لأنهم يقرأون في كتبهم كيف التجأ الذهبي الفم في اثناء محنته الى البابا وكيف أعاده البابا الى كرسيه (!!) مهدداً الامبراطور والامبراطورة بالحرم . ويستنتجون عندئذ ان الأرثوذكسيين والامبراطور نفسه خضعوا (!!) في عهد الذهبي الفم الى البابا » (١) .

ولسنا ممن يغمط فضل الرهبانية اليسوعية في حقول التعليم والتهذيب وعمل الخير في هذه البلاد ولا ممن يجهـل أفرادها الأفاضل وبينهم التقي الطاهر والعالم الفاضل والعامل الغيور في حقل الرب. ولكننا لا نرى في الكثلكة التي قاموا بها آنئذ حلا لمشكلة الانشقاق بل علة عللها في العصور الحديثة .

1) *Les Jesuites dans le Levant Vers 1650, l'Unite de l'Eglise, (1934), 64 Musset, H., Hist. du Christ., II, 131 - 133.*

وفي السنة ١٦٩٧ خص الأب فيرسو اليسوعي دير البلمند بعنايته لأنه كان آهلا بالرهبان « وكان للشقاق شأن عظيم فيه بحيث يتناول كل ملة الروم » . وحاول الأب فيرسو الدخول الى البلمند لايضاح الكثلكة مراراً ولكنه اخفق . ثم أحس اثنان من الشبان الأرثوذكسيين الذين كانوا يتعلمون عند الآباء اليسوعيين بالدعوة الرهبانيـــة واختارا البلمند لخدمة الله فيه . فأخذ الأب فيرسو يزورهما ويرشدهما منبهاً الى ما في هذا الدير من خطر . ثم تحقق انهما راسخان في الكثلكة فاتخذهما وسيلة للدعاية الرومانية بين الرهبان . ولكي يرضي غيرهم كان يمدح القديس باسيليوس الكبير ويتلو أخباره . ووضع بين أيادي صديقيه مؤلفات الأب كليسون والأب نوه (١) وفي السنة ١٧٠٤ تقدم خمسة بطلب الى رومة يرجون نقلهم الى عاصمة الكثلكة لاكمال علومهم وتنسكهم (٢) . وفي هذه الآونة نفسها وصل الى البلمند شابان حلبيان راغبان في التبتل . فنصح لهما الأب نصرالله الحلبي ان يذهبوا الى جبل لبنان ويفتشوا عن مطرح خالي وبعده نحن نجيء الى عندكم ونعمل رهبنة قانونية لأن في هذا الدير الانسان ما يحسن يعيش في حرية الايمان لأن فيه اناس « معاندين ، وعشرتنا معهم لا تصلح . فسمعوا من شوره وراحوا حوشوا دير الذي يقال له مار يوحنا الشوير » (٣) .

وولد في دمشق في السنة ١٦٤٣ مخائيل ابن موسى الصيفي ونشأ فيهـــا . وتعلم في مدرسة الطائفة في الدار البطريركية . ولقي عطفاً خصوصياً من الخوري جرجس بربق . وكان هذا قد سافر الى رومة وتخمر فيهـــا بالكثلكة . وتردد ميخائيل على دير الآباء اليسوعيين والكبوشيين فجذبوه اليهم وزادوه طاعـــة وخضوعاً . وتوفي ارميا متروبوليت صور وصيدا في حوالي السنة ١٦٨٠ فحض المرسلون اللاتينيون أعيان الروم في صيدا على انتداب الخوري ميخائيل صيفي . ورضي البطريرك كيرلس الثالث ، وكان يجهل باطن ميخائيل ، فسامه مطراناً على صور وصيدا في السنة ١٦٨٢ ودعاه افتيميوس . وأول عمل همّ به هـــذا

1) *Lettres Edifiantes*, 1,235.

٢) الطائفة الملكية للخوري قسطنطين الباشا ج ١ ص ٣٥٠ – ٣٥١

٣) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٥٢

الاسقف الجديد انه أسرع فأرسل اعترافه بالايمان الكاثوليكي الى البابا انوشنتش الثاني عشر . وكانت ابرشية صور وصيدا واسعة ولكنهـــا غير عامرة . فعمل الاسقف الجديد على تعميرها وأنشأ الرهبانية المخلصية قبيل السنة ١٧٠٠ لنشر مبدأ الاتحاد مع رومة .

ويلاحظ هنا ان طائفة الروم الكاثوليكيين التي نشأت على هـــذا الوجه منذ مئتين وخمسين سنة لا تزال صغيرة بالنسبة للطائفة الام التي تفرعت عنها . فتكون رومة والحالة هذه قد ربحت البعض لتنفر الكل ! وما يصح عن الروم الكاثوليكيين يصح على غيرهم من الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي بزغت للوجود في هذه الفترة نفسها وبالطريقة نفسها .

* * *

دعوات رومة للاتحاد

وتبوأ السدة الرومانية في القرن التاسع عشر عدد من الباباوات البررة الأفاضل . فهالهم انتشار الكفر في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولمسوا لمس اليد ان نشر الكثلكة في الشرق لم يأت بالفائدة المطلوبة فعادوا الى المفاوضة لاجل الاتحاد ووجهوا الى اخوانهم البطاركة الشرقيين عدداً من الدعوات لهذه الغاية .

ولكن انفصال رومة عن شقيقاتها الشرقيات طوال القرون الحديثة وانفرادها في الرأي كان قد وسع شقة الخلاف في المفاهيم الكنسية والنظم واللاهوت . فرأي البابا غريغوريوس السابع في سلطة اسقف رومة وصلاحياته كان قد أصبح قاعدة أساسية للانتظام والتنظيم . والاكتفاء بالعقل دون الوحي في الأوساط الفكرية الاوروبية كان قد اضطر علماء الكنيسة الغربية الى اعتماد الفلسفة المدرسية في أبحاثهم اللاهوتية النظرية فابتعدوا بذلك عن اخوانهم في الشرق الذين كانوا لا يزالون مستمسكين باللاهوت النسكي الصوفي مترفعين عن الفلسفة جاعلين من خبرة الله في حياتهم ومن النصوص الطاهرة وأقوال الآباء نبراساً يسترشدون به في كل تفكير لاهوتي . وكانت الفلسفة المدرسية قد أدت في الغرب الى تقسيم الكنيسة الى كنيستين كنيسة معلمة وكنيسة متعلمة. فرأى الآباء الشرقيون في هذا ايضاً خروجاً على التقليد وعلى النصوص المنزلة . فالكنيسة الأرثوذكسية كانت ولا تزال جمهرة المقدسين رعاة وشعباً لا رعاة معلمين وشعباً متعلماً . ولا يزال أفراد الشعب الأرثوذكسي حتى يومنا هذا يحافظون على هذا التقليد الأرثوذكسي ويعملون به بفخر واعتزاز ان في حقل النظم والقوانين الكنسية او في حقل اللاهوت والتاريخ الكنسي .

وهكذا فانه عندما وجّه البابا بيوس التاسع رسالته « *In Suprema*

Petri Sede » الى السلطات الروحية الأرثوذكسية في السادس من كانون الثاني سنة ١٨٤٨ ضمّنها عبارات غربية اعتبرها الرؤساء الأرثوذكسيون جارحة كقوله : « عودوا الى الوحدة . وافقونا في الاعتراف بالايمان الصحيح الذي تحتفظ به الكنيسة الكاثوليكية وتعلمه » (١) . فغضبوا رؤساء وشعباً والتأم في القسطنطينية مجمع ضم البطاركة الأربعة وتسعة وعشرين مطراناً فردّ رداً قاسياً طعن فيه بما «اضافته» رومة الى مقررات المجامع المسكونية وبما أدعت به من سلطة وما قامت به من دعايات في الأوساط الأرثوذكسية (٢) .

وعاد بيوس التاسع بعد عشرين عاماً يعد العدة لمجمع الفاتيكان فدعا السلطات الروحية الأرثوذكسية اولا ثم الأساقفة البروتستانت بعد ذلك ببضعة ايام (٣). وارسل الدعوات الى سفيره في القسطنطينية السيد برونوني *Mgr Brunoni* فطلب أبوان من حاشية هذا السفير الباباوي في الثالث من تشرين الاول سنة ١٨٦٨ السماح بمقابلة صاحب القداسة غريغوريوس السادس البطريرك المسكوني . وفى الخامس من الشهر نفسه جاء الأب تيستي وكيل السفير وآباء ثلاثة آخرون فقال الأب تيستي موجهاً كلامه الى البطريرك : « لقد جئنا في غياب سيادة السفير لندعو قداستكم الى الاشتراك في أعمال المجمع الذي سيعقد في رومة في الثامن من كانون الاول في السنة القادمة » ثم قدم ظرفاً كان يحمله بيده . فأشار البطريرك على أحد كبار حاشيته ان يأخذ الظرف ويضعه على الديوان ثم قال الى الأب تيستي : « لو لم يكن جورنال رومة وغيره من الجرائد التي تغني اغنيته قد سبق لها ونشرت نبأ دعوة غبطته لمجمع مسكوني ، كما تقول أنت » في رومة ولو كنا نجهل محتويات هذه الدعوة وأهداف غبطته لكنا تلقينا بفرح رسالة صادرة عن بطريرك رومة القديمة آملين ان نجد فيها شيئاً جديداً . ولكن لما كان غبطته قد نشر رسالة الدعوة فانه أظهر مقاصد فيها تجرح الكنائس الأرثوذكسية الشرقية . وانه ليؤسفنا ان نقول لابوتك بكل اخلاص انه لا يمكننا ان نقبل هذه الدعوة لأن

---

1) *Text et Traduction, Ireuikon, 1929, 666 - 686.*
2) *Mansi, Vol. 40, Cols. 377 - 418.*
3) *Mansi, Vol. 50, Cols. 1255 - 1261.*

غبطته يعود بدون انقطاع الى مواقف لا تتفق وروح الانجيل او تعاليم المجامع والآباء . وفي السنة ١٨٤٨ سعى غبطته السعي نفسه فاضطر الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية الى الرد على رسالته لتظهر له ببساطة ووضوح ان اجراءات رومة لم تتفق وتقاليد الآباء والرسل فأدى ذلك الى تكدر غبطته وتألمه . وفي رده المتأخر على هذا الرد أظهر كل غضبه وسخطه . وبما ان غبطته لا يريد الرجوع عن مواقفه فاننا نحن ايضاً ، والحمد لله ، لا نريد ان نتراجع عن مواقفنا . ولا نريد نحن ان نجدد آلامه او ان نثير مرة اخرى شكاوي قديمة فنحرك بذلك شروراً ساكنة وندخل في مناقشات ومجادلات تنتهي في غالب الأحيان بالقطيعة والنفور ونحن اليوم ، وقد أحاطت المخاطر بكنيسة المسيح، بحاجة الى الاشتراك في الانجيل والمحبة والرأفة . وليس هنالك مجال للبحث المجمعي لأنه لم يبق بيننا لا مبادىء ولا مواقف مشتركة نلتقي عندها .

« ومن الناحية الاخرى فاننا لا نرى حلولا أقرب الى النجاح وأكثر تجرداً عن العاطفة من التاريخ نفسه . فما دامت الكنيسة قد عاشت عشرة قرون بعقيدة واحدة ان في الشرق او الغرب ان في رومة القديمة او في رومة الجديدة فلنعد نحن الاثنين الى هذه الكنيسة الواحدة لنرى من هم الذين أضافوا الى العقيدة الواحدة او حذفوا منها شيئاً ولنحذف ما أضيف هنا وهنالك ولنضف ما حذف وعندئذ نجد أنفسنا من حيث لا ندري منضوين تحت راية واحدة هي راية الأرثوذكسية الكاثوليكية التي ابتعدت عنها رومة القديمة بالعقائد الجديدة والتحديدات المبتعدة أكثر فأكثر عن التقليد المقدس » .

الأب تيستي : « وما هي المبادىء التي لا توافق عليها قداستكم » ؟

البطريرك : « اذا تحاشينا البحث في التفاصيل قلنا انه ما دامت كنيسة المخلص على الأرض فلا يمكننا ان نعترف بأن اسقفاً ما يحكم كنيسة المسيح ما عدا السيد نفسه . فليس هنالك بطريرك معصوم منزه عن الذنب او الخطأ يتكلم من منبر أعلى من المجامع المسكونية التي هي وحدها معصومة ما دامت تنطق بما يتفق والأسفار المقدسة والتقليد الرسولي . ولا يمكننا الاعتراف، بدون تجديف على الروح القدس

بعدم تساوي الرسل وهو الذي حل عليهم جميعاً بالمقدار نفسه . ولا يمكننا الاعتراف بأن بطريركاً او باباً يتمتع بامتيازات منبرية وبحق الهي لا مجمعي كما تؤكدون » .

الأب الرابع : « ليست رومة مستعدة ان تغير مواقفها » .

الأب الثاني : « بما ان مجمع فلورنزة اعترف بهذه الامور ووحدة الكنيستين فالأب الاقدس يدعو الى المجمع المسكوني المقبل على هذا الأساس لأجل العودة الى الاتحاد » .

البطريرك : « ما أكثر ما قيل وكتب ضد مجمع فلورنزة ! والاميون وحدهم يمكنهم ان يتظاهروا بتجاهل ذلك. اما ابوتكم فانكم لستم من هذه الطبقة. والتنازع في مقرراته بدأ في جلسة هذا المجمع الاجباري الأخيرة . والاتحاد الذي وقع بالاكراه مات وهو لا يزال في قمطه . ان مجمعاً التأم لأسباب سياسية ومصالح زمنية وتوصل الى نتائج أكره على القول بها اكراهاً ووقعه بعضنا خوفاً من تهديدات البابا ومن الجوع لا يستحق ان يدعى مجمعاً . وعندنا المجمع المسكوني هو كالكنيسة الحقيقية الجامعة المسكونية هيئة المقدسين الأطهار الذين يحملون ، مهما كان عددهم ، العقيدة الرسولية النقية وايمان الكنيسة الذي ثبت منذ تأسيس الكنيسة وطوال القرون الثمانية الاولى الذي اجمع عليه وأعلنه آباء الشرق والغرب والمجامع السبعة المقدسة بالهام الروح القدس وبموجب رسالة الانجيل السماوية. واننا لنرجو ان يظل هؤلاء الآباء الموقرين وان تبقى قرارات هذه المجامع التي يعرفها الجميع نبراساً خالياً من الشبهات معصوماً عن الخطأ يستضيء بنوره كل مسيحي وكل اسقف في الغرب يسعى باخلاص للوقوف على الحقيقة الانجيلية. هؤلاء هم المرجع الأعلى للحكم في الحقيقة المسيحية وهم الطريق الثابت الذي يؤدي الى التلاقي بالقبلة المقدسة والاتحاد في العقيدة. ومن يحيد عن هذا الطريق يعتبر عندنا بعيداً عن المحور عاجزاً عن ضم أعضاء الكنيسة الكاثوليكية الأرثوذكسية . واذا كان في الغرب أساقفة يشكون في صحة بعض عقائدهم ويرغبون في الاجتماع معاً لبحث هذه العقائد فليجتمعوا لأجل ذلك في الوقت الذي يريدون . أما نحن فانه ليس

لدينا أي شك في تقليد آبائنا أو في عقائد التقوى الراسخة التي لا تتزعزع .

« واذا عدنا الى المجمع المسكوني موضوع البحث ، أيها الآباء المحترمون، فانه لا يخفى على ابوتكم ان المجامع المسكونية تجتمع على غير الشكل الذي وضعه غبطته . فاذا كان بابا رومة يقبل بالتساوي في الشرف وبالاخوة الرسولية فانه يجب عليه بصفته مساوٍ بين متساوين في الوقار والأول في ترتيب المنابر وبموجب القانون الكنسي ان يكتب رسالة شخصية الى كل بطريرك او سنودس في الشرق لا ان ينشر دعوات عن طريق الصحافة بصفته الرئيس الأعلى والحاكم المطلق .كان يجب عليه ان يخاطب اخوته كأخ وكمساوٍ لهم في الرتبة والاحترام ليدرس معهم كيفية عقد مجمع مقدس والأسباب لذلك . واذا ما قلنا هذا وعدتم معنا الى التاريخ والى المجامع المسكونية تم الاتحاد الحقيقي الذي ننشد جميعنا حول شخص المسيح .

« ونحن نستمر في الصلوات والتضرعات لأجل سلام العالم وثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الجميع. واننا نكرر القول بأسف شديد ان هذه الدعوة لا تفيد ولا تأتي بثمرة وكذلك الرسالة التي حملتموها ضمن هذا الظرف » .

الأب الرابع : « وهل يمكن ان يتم الاتحاد بالصلاة وحدها ؟ اذا مرض مريض فاننا نطلب الى المسيح شفاءه ونوجه له الصلوات الدائمة والتضرعات ولكننا نستعين في الوقت نفسه بالطبيب والعلاج » .

البطريرك : « في معالجة الأمراض الروحية والدينية التي هي موضوع البحث فليس غير المسيح الذي أسس الكنيسة وأكملها يعرف كل شيء . فالسيد يعرف الداء جيداً والدواء . ولذلك فاننا نكرر القول بوجوب الصلاة الحارة الدائمة ليلهم ربنا ، الذي هو المحبة بحد ذاته ، العلاج النافع المقبول عند الله » .

« وبعد ان قال قداسته كل هذا أومأ الى المترجم ان يأخذ الظرف الذي كان قد وضع على الديوان وان يعيده الى ممثلي السيد برونوني الذي حمله وبعد الاستئذان من قداسته خرج الزائرون يشيعهم رئيس التشريفات حتى السلم» (١).

١) هذا ما اذاعته البطريركية المسكونية في حينه وهو ما أعادت نشره « Ekklesia » في اول آب من السنة ١٩٥٦ .

وحذا لاوون الثالث عشر (١٨٧٨ ـ ١٩٠٣) حذو بيوس التاسع فدعا الى الاتحاد في العشرين من حزيران سنة ١٨٩٤ برسالة « *Praeclara gratulationes* » فقال : « ننظر نظرة انعطاف صميم الى الشرق الذي انتشر منه الخلاص في بقية العالم . أجل انه ليسرنا الافتكار بأن الوقت بعيداً لان تعود الكنائس الشرقية المبجلة الى ايمان اجدادها بل الى مجدها القديم . واننا لنرجو ذلك بما انها لم تنفصل عنا الا لاختلافات طفيفة . واذا استثنينا بعض امور تجدنا واياها على اتفاق تام في سائر الشؤون . وكثيراً ما نرى في الكتب المؤلفة للدفاع عن الايمان الكاثوليكي أدلة عديدة متخذة من تعاليمها وعاداتها وطقوسها . ولا يخفى ان أخص باعث على الانفصال انما هو اولية الحبر الاعظم . وبما ان الحال على هذه الصورة نسألها ان تحسن التأمل في القرون الاولى وتمعن النظر كيف كانت شعائر اجدادها وماذا تركت لها العصور الاولى من التقاليد . وحينئذ ترى من غير ارتياب كون شهادة السيد المسيح « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي » لا تنطبق الا على الاحبار الرومانيين .

« ان القرون الاولى رأت احباراً عديدين من الشرق مثل أناكليطوس وايفارست وأنيقيوس وإلوتيروس وزوزيموس واغاتون . واكثرهم بعد ان دبروا النصرانية بحكمة وقداسة بذلوا في سبيلها دماءهم .

« وكل يعلم في اي زمن وباي علة حصل هذا الانفصال المشؤوم ويعرف من كانوا مسببيه. فقبل الزمن المذكور الذي فصل فيه الانسان ما قرنه الله كان اسم الكرسي الرسولي مكرماً ومحترماً عند جميع الطوائف النصرانية . وكل الشرق كالغرب يطيع باتفاق ودون تردد الحبر الروماني طاعته لخلف القديس بطرس الحقيقي بل طاعته لنائب المسيح على الارض . وبناء على ذلك ارسل فوطيوس بعينه في بدء الخلاف معتمدين من قبله الى رومة عاهداً اليهم بالدفاع عن دعواه . وفي الوقت نفسه كان البابا نقولا الاول قد انفذ قصادة الى مدينة القسطنطينية دون ان يتعرض لهم احد « ليفحصوا بعناية مسألة البطريرك اغناطيوس ويخبروا الكرسي الرسولي عن حقيقتها بالتمام . وقصارى القول ان تاريخ هذا الأمر يدل

دلالة واضحة على اولية الكرسي الروماني حينما اخذ بالانفصال عنـــه . واخيراً لا يخفى على احد ان اليونان واللاتين في مجمعي ليون وفلورنسة المسكونيين قـد ثبتوا باتفاق الآراء كون سلطة الاحبار الرومانيين هي عقيدة من عقائد الايمان . وانما ذكرنا هذه الامور لانها بمنزلة دعوة للائتلاف والسلام ولاسيا في هذا الوقت الذي نرى فيه من الشرقيين ادلة ميل الى الكاثوليك وعواطف ولاء عظيم . وانما بدا هذا للعيان من زمن غير بعيد اي عندما ذهب قصادنا الى الشرق لامور تقوية فقوبلوا فيه بكمال الانسانية والصداقة .

« ومن ثم فاننا نوجه الكلام اليكم ايها الشرقيون المنفصلون عن الكنيسة الكاثوليكية سواء كنتم من ذوي الطقس اليونـــاني او من ذوي طقس آخر شرقي . ونسأل كلاً منكم ان يمعن النظر على الخصوص في الكلمات المملوءة من الرصانة والحكمة التي وجهها بيساريون الشرقي الجليل الى اجدادكم قائلا : « اي جواب يمكننا ان نقدمه لله تعالى على انفصالنا عن اخواننا . فأنـه ليجمعهم في حظيرة واحدة قد نزل هو نفسه من السماء وتجسد وصلب . فماذا يكون عذرنـا ياترى لدى اعاقبنا ؟ » .

« افحصوا بانتباه مـا نقوله لكم بحضرة الله . واعلموا بأننا نحثكم على التصالح والاتحاد التام بالكنيسة الرومانية غير مدفوعين الى ذلك بأسباب بشرية بـل بالمحبة الالهية والرغبة في الخلاص العام . ومرادنا بالاتحاد الاتحاد التام الكامل لا ما لا يترتب عليه سوى بعض اتفاق في العقائـد الايمانية وتبادل ادلة المحبة الابوية لان الاتحاد الحقيقي بـين المسيحيين هو ما أراده السيد المسيح مؤسس الكنيسة . وهو متوقف على وحدة الايمـان والسلطة . ولا سبيل لكم ان تخشوا ، لا منا ولا من خلفائنا ، الغـاء شيء من حقوقكم وامتيازاتكم البطريركية وليتورجياتكم وعادات كل كنيسة من كنائسكم . لان الكرسي الرسولي دائمـاً يراعي كل المراعاة عوائد كل شعب .

« ثم اذا تم الاتحاد الذي نتمناه يعود ولا شك على كنائسكم بالمجد الاثيل والرفعة العظيمة . وهكذا يكون قـد اجاب الله الصلوات التي تقدمونها له بأن

« يزيل الانشقاق ويجمع المتفرقين ... ويجمعهم الى الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية (ليتورجية القديس باسيليوس) . فعودوا اذاً الى هذا الايمان الواحـد المقدس الذي سلمه الاقدمون الينا واليكم من غير انقطاع وقـد حفظه آباؤكم وأجدادكم بغير انفصام وشرفوه ببهاء فضائلهم وعظمة احلامهم وسمو تعاليمهم كأثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس النزينزي وفم الذهب وغيرهم كثيرين الذين يشترك الشرق والغرب في مجدهم بصفة ميراث عمومي » (١) .

ولاوون الثالث عشر حبر عظيم مخلص في ما يقول . ومعاصره انثيموس السابع البطريرك المسكوني حبر عظيم مخلص ايضاً في ما ردّ بـه على هذه الرسالة ولكن الواقع انه مع مرور الزمن ، نشأ اختلاف في المفاهيم الكنيسة بين كنائس الشرق وكنيسة الغرب . فقـال الآباء المتأخرون في الغرب اقوالا في موضوع السلطة كان للحماس والغيرة اثرهما فيها فجاءت متطرفة . ولا يختلف اثنان فيما نعلم في ان الأدب الكنسي القديم ، ادب هؤلاء الآبـاء الذين اشار اليهم لاوون في رسالته ، خالٍ من اي اعتراف بالسلطة التي تطلبها الفاتيكان في القرون المتأخرة كما انه لا يختلف عالمان ايضاً في ان رجوع بعض الآباء الشرقيين الى رومة لحل بعض المشاكل الكبيرة التي جابهتهم قبل الانشقاق كان من النوع الذي لا يزال شائعاً بين الكنائس الارثوذكسية في عصرنا . فقـد يعود بطريرك ارثوذكسي ومجمع بكامله الى بطريرك ارثوذكسي آخر لحـل مشكلة من المشاكل دون الاعتراف بعمله هذا بسلطة لهذا البطريرك كالسلطة التي تنشدها رومة . وجل ما هنالك ان اسقف رومـة تمتع في القرون الاولى بنفوذ وافق تقدم رومة العاصمة الاولى على سائر مدن الامبراطورية .

وهكذا فاننا نرى البطريرك المسكوني افتيموس السابع يذيع في آب السنة ١٨٩٥ بالاشتراك مع اعضاء المجمع القسطنطيني المقدس رسالة ردّ بها على رسالة البابا لاوون الثالث عشر . ولا مجال لنشر هـذا الرد برمته هنا لانه طويل ولانه نشر على حدة في بيروت في السنة الماضية . (٢) وخلاصتـه ان كنيسة المسيح

١) عن البشير والصادق في خدمة الحقائق (بيروت ١٩٠١ ص ٣ — ٧)

٢) رسالة بطريركية ومجمعية جواباً على رسالة البابا لاوون الثالث عشر في اتحـاد الكنائس (بيروت ١٩٥٨ طبعة ثالثة) .

الارثوذكسية على استعداد دائم لقبول كل ما من شأنه الاتحاد شرط رجوع كنيسة الغرب الى روضة المجامع المسكونية السبعة وتعليم الانجيل الشريف الطاهر. فالايمان لا يتغير مع الزمان ولا مع الظروف بل يبقى دائماً هـو نفسه في كل إين وآن. والكنيسة المقدسة الجامعـة الرسولية كنيسة المجامع المسكونية السبعة تؤمن وتعتقد وفقاً لنص الانجيل بأن الروح القـدس ينبثق من الآب. ولكن كنيسة الغرب اضافت العبارة « والابن » فقالت بالانبثاق من الآب والابن مخالفة بذلك قرار المجمع المسكوني الثـاني وموقف البابا لاوون الثالث ترس الارثوذكسية وسلف لاوون الثالث عشر في كرسي رومة. والتعميد بغطسات ثلاث هو أمر الرب على حد قول البابا بيلاجيوس. ونحن الارثوذكسيين امناء على التعليم الرسولي و « قد وقفنا مجاهدين عن المتاع العام كنز الايمان الصحيح » كما قال باسيليوس الكبير في رسالته الى الاساقفة الايطاليين والافرنسيين. وكنيسة المجامع المسكونية السبعة تممت سر الشكر بخبز مختمر لا بالفطير وناولت الجميع من الكأس عمـلاً بوصية الرب « اشربوا منه كلكم » والقرابين تتقدس ببركة الكاهن بعد استدعاء الروح القدس. ولا جزاء قبل القيامة العامة. وتجسد المتعالي وحده كان نقياً وبلا دنس ولم يسلط السيد المخلص رسولاً على آخر. والصخرة التي بنى كنيسته عليهـا هي صخرة الايمان هي القول انه المسيح ابن الله الحي وبطريرك كنيسة الغرب متقدم بين متساوين لانه كان اسقف اول مدينة في المملكة. والبابا غير معصوم وقد اخطأ فعلاً في امور عقيدية. فليس احد معصوماً على الارض الا ابن الله. وبطرس نفسه انكر الرب ثلاث مرات وبولس وبخـه مرتين بأنه لا يسعى مستقيماً الى حقيقة الانجيل.

« اما نحن الذين لم نزل بنعمة الله الكلي الصلاح ومسرته اعضاء شريفـة في جسم المسيح اعني كنيسته الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية فلنتمسك بالعبادة الحسنة الآبائية المسلمة من الرسل ولنحـذر الرسل الذين يأتون بشكل الحملان ويحاولون ان يصطادوا البسطاء فينا. ونحن الاساقفة المقامين بنعمة الله ورحمته رعاة ومعلمين لكنائس الله المقدسة فلننتبه لانفسنا ولكل الرعية التي اقامنا فيها الروح

القدس اساقفة لنرعى كنيسة الله التي افتداها بدمه الخاص لاننا سنعطي حساباً. ولذا فليعز بعضنا بعضاً وليبن احدنا لآخر.

« واله كل نعمة الذي دعانا الى مجده الأبدي في المسيح يسوع هو يجعلنا كاملين راسخين مؤيدين مؤسسين. وليمنح جميع الذين هم خارج الحظيرة الواحدة المقدسة الجامعـة الأرثوذكسية حظيرة خرافه الناطقة والبعيدين عنها ان يستنيروا بنور نعمته ومعرفة الحق له المجد والعزة الى أبد الآبدين آمين ».

* * *

الأرثوذكسية ووحدة الكنيسة
والسلطة والسيادة فيها

وليست الكنيسة الارثوذكسية مجموعة من الكنائس المستقلة كما يزعم بعض الكتاب الغربيين وانما هي الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية . ووحدة الكنيسة داخلية مستترة وخارجية ظاهرة . والوحدة الداخلية المستترة هي وحدة الحياة في المسيح ومعه . وهذه الحياة في المسيح ومعه هي خبرة فردية تسبق الاتحاد الظاهري بين الافراد . وهي اساس الوحدة الخارجية الظاهرة . فاذا ما خبرنا المسيح افراداً وآمنا قلنا مع الرسول في رسالته الى اهل افسس (٤ : ٥) : « جسد واحد وروح واحد كما دعيتم في رجاء دعوتكم الواحد ، رب واحد وايمان واحد ومعمودية واحدة اله واحد وآب واحد للجميع هو على الكل وبالكل وفيكم كلكم » .

وبينما تكتفي الكنيسة الارثوذكسية بوحدة الحياة في المسيح ومعه ووحدة الايمان والعقيدة ووحدة الصلاة والاسرار تعلق كنيسة رومة اهمية كبرى على نوع من الوحدة الخارجية هي وحدة الاتفاق حول اسقف واحد هو اسقف رومة وتوجب الخضوع لسلطته واعتباره اسقف الاساقفة . ومن هنا انفصال رومة وابتعادها عنا . فالارثوذكسية تقضي باحترام النصوص الظاهرة والمحافظة على التقليد الرسولي . فالسيد المخلص ساوى بين الرسل ولم يسلط احداً منهم على آخر والصخرة التي بنى عليها الكنيسة هي صخرة الايمان صخرة القول مع بطرس « انت المسيح ابن الله الحي » . والكنائس التي أسسها الرسل في المدن المختلفة كانت متحدة بالمحبة والايمان والمعونة والمجامع . واول هذه المجامع مجمع الرسل في اورشليم برئاسة يعقوب . ورأس الكنيسة الارثوذكسية الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية هو المسيح الاله ولا نائب له على الارض لانه « هو » معنا الى انقضاء

الدهر . أو لم يقل هو حيث يجتمع اثنان او ثلاثة باسمي اكون « انا » بينهم !

والكنيسة الأرثوذكسية واحدة بفعل الروح القدس الذي « يعلمها كل شيء ويذكرها بما قاله السيد » (يوحنا ١٤ : ٢٦) فهو الذي ازال الحواجز بلغة الانجيل لكيلا يبقى يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا قلف ولا اعجمي ولا اسكوتي ولا عبد ولا حر بل المسيح هو كل شيء (كولوسي ٣ : ١١) والروح القدس هو الذي يعطي الكنيسة موهبة المحافظة على الحقيقة . وهو الذي يقوّي ويعلّم: « فاذا قادوكم الى المجامع والحكام وذوي السلطان فلا تهتموا كيف او بماذا تحتجون او ماذا تقولون لان الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما ينبغي ان تقولوه » (لوقا ١٢ : ١١-١٢) . ومن هنا ابتداؤنا خدماتنا الروحية بالقول : « ايها الملك السماوي المعزي روح الحق الحاضر في كل مكان والمالىء الكل كنز الصالحات ورازق الحياة هلمّ واسكن فينا وطهرنا من كل دنس وخلّص ايها الصالح نفوسنا » .

وكنيستنا واحدة جامعة بما تم بالعشاء السري وبما يتم باشتراكنا في كأس واحدة وخبز واحد متحولَين بواسطة الروح القدس الى جسد المسيح ودمه . « فقد كنا أجنبيين عن رعوية اسرائيل غرباء عن عهود الموعد بلا رجاء وبلا اله فصرنا قريبين لانه هو سلامنا وقد جعل الاثنين واحداً ونقض في جسده حائط السياج الحاجز اي العداوة وابطل ناموس الوصايا بتعاليمه ليخلق الاثنين في نفسه انساناً جديداً واحداً» (افسس ٢ : ١٢ – ١٦) . وهذه الكنيسة الجامعة لا تشمل المؤمنين على الارض وحدهم بل تربطهم بالكنيسة السماوية وبالعذراء والدة الاله ومصاف القديسين . ومن هنا هذه الايقونات المقدسة فهي تذكرنا بأن السيدة العذراء والقديسين والملائكة معنا في كنيسة واحدة جامعة . ومن أبهى مظاهر هذه الجامعية اشتراك المؤمنين في صلاة واحدة في وقت واحد وفي تقدمات متعددة لمذبح واحد وفي اشتراك كهنة متعددين في خدمة واحدة وفي شعور كل مؤمن بمسؤولية شخصية تجاه الكنيسة الجامعة الواحدة وقيامه بقسط من العمل يتناسب ومواهبه وقدرته .

ورأي الآباء القديسين في السلطة والسيادة في الكنيسة مأخوذ كسائر آرائهم

من النصوص الطاهرة . فقد جاء في انجيل يوحنا الحبيب ابن السيدة بالتبني وفي الفصل العشرين ما يلي :

« وقال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم اصعد بعد الى ابي بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى أبي وأبيكم والهي والهكم . فجأت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ انها رأت الرب وانه قال لها هذا .

« فلما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الاسبوع والأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين خوفاً من اليهود جاء يسوع ووقف في وسطهم وقال لهم السلام لكم. ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ حين أبصروا الرب. فقال لهم ثانية السلام لكم كما أرسلني الآب كذلك أنا أرسلكم . ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خذوا الروح القدس . من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم . وان توما أحد الاثني عشر الذي يقال التوأم لم يكن معهم حين جاء يسوع . فقال له التلاميذ الآخرون اننا قد رأينا الرب . فقال لهم ان لم أعاين أثر المسامير في يديه وأضع اصبعي في موضع المسامير وأضع يدي الى جنبه لا أؤمن . وبعد ثمانية أيام كان التلاميذ أيضاً داخلا وتوما معهم . فأتى يسوع والأبواب مغلقة ووقف في وسطم وقال السلام لكم . ثم قال لتوما هات اصبعك الى ههنا وعاين يديّ وهات يدك وضعها في جنبي . ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً . أجاب توما وقال له ربي والهي . قال له يسوع لانك رأيتني يا توما آمنت . طوبى للذين لم يروا وآمنوا .

وهكذا فان السيد خص جماعة الرسل بسلطة الحل والربط . ولم يمنحها للاخوة ثم ان الرسل الذين تسلموا هذه السلطة من السيد نفسه منحوها لمتيا الذي حلّ محل يهوذا ثم لبولس وتيموثاوس وتيطس وغيرهم ممن خلفهم في مهام الرسالة . وهكذا دواليك حتى الاساقفة في عصرنا الحاضر . ومن هنا وجوب لثم اليد لاستمداد البركة الرسولية ومن هنا ايضاً وجوب الاحترام والاكرام والطاعة .

ولم يشترط السيد لهذه المنحة استحقاقاً بشرياً معيناً . فانه لم يمتحن شجاعة تلاميذه عندما منحهم سلطة الحل والربط بل دخل والابواب مغلقة . ولم يشترط في تلك الساعة ايماناً كما فعل مع بطرس في مناسبة اخرى ولم يكترث لشك البعض كما جاء في بعض الاناجيل .

وقال السيد والابواب مغلقة السلام لكم مرتين مرة تطميناً ومرة اخرى لمناسبة رسالته ورسالتهم . فأراد بذلك ان تكون سلطتهم مصدر سلام ونظام وتآلف لا بذرة شقاق واختلاف . ولم تصدر هذه السلطة عن هذا العالم بل عن الآب بالابن والروح القدس . فليس هم الذين اختاروه وانما هو اختارهم (يوحنا ١٥ : ١٦) وكما اطاع الابن الآب حتى الموت هكذا يجب الخضوع للمسيح وخلفائه حتى انقضاء الدهر . ولم تمنح هذه السلطة بطريقة روحية وانما منحت من شخص المسيح الى الرسل بالنفخ . ومن هنا وجوب منحها بالنفخ ووضع الايدي والأنجيل كما لا نزال نفعل حتى عصرنا هذا .

ولم يعط السيد هذه السلطة لكل تلميذ بمفرده بل لمجموع الرسل . فانه وقف في « وسطهم » ونفخ « فيهم » وقال « خذوا » الروح القدس . من « غفرتم » خطاياهم ومن « أمسكتم » . وهكذا فان السلطة في الكنيسة هي لمجموع الاساقفة لا لاسقف واحد هي سلطة واحدة لجماعة لا سلطات لافراد . فليس لاحد ان يعتبرها ملكه الخاص لأنها فوق الفرد . ويلاحظ ايضاً ان الرسل لم يكونوا جميعهم هناك . فتوما كان غائباً ولا نعلم بالضبط ما اذا كان بطرس بينهم . وعلى الرغم فان السيد منح تلاميذه هذه السلطة . وهي بالتالي لا تستوجب اكتمال العدد اواكثرية وانما هي فوق الفرد وفوق المجموع . وهكذا فانه عندما ينسحب احد الرسل من هيئة نعلم بالضبط اين تبقى هذه السلطة. ومع اتساع الكنيسة وازدياد عدد افرادها تعرضت لانسحاب جماعة بأكملها من المجموع فهل يعقل ان يقسَّم المجموع الى مجموعين وتصبح السلطة سلطتين ويجابه المؤمنون بالاختيار بين الخضوع لهذا المجمع او ذاك ! ان في هذا نقضاً لشرط السلام الذي ربطه السيد بالسلطة التي منحها . ولهذا السبب نقرأ في النصوص الطاهرة عن

اعمدة الرسل. فبولس يذكر ثلاثة (غلاطية ٢ : ٩) هم بطرس ويعقوب اخو الرب ويوحنا الحبيب والى هؤلاء وجّه طلبه للبت في امر رسالته . ثم انه عندما اختلف مـع بطرس في امور انطاكية عرض القضية على الرسل المجتمعين في اوروشليم فأبدى بطرس رأيه « فسكتت الجماعة » « وحكم » في الأمر يعقوب اخو الرب (اعمال ١٥ : ١٩) . وهكذا فان الروح القدس انتدب في عهد الرسل أعمدة لازالة الشك والتعرف بدون صعوبة الى المجموع صاحب السلطة والقول الفصل .

وتكاثر الاساقفة خلفاء الرسل فتجمعوا وحدات محلية منشئين بمجامعهم المحلية مراكز للسلطة المحلية . ثم تألفت من هـذه الوحدات المحلية بطريركيات وتألفت من البطريركيات هيئة مسكونية صاحبة السلطة في العالم . ولم يكن للكنيسة في اي وقت من اوقاتها اقل من بطريركيتين او ثلاث . ومرّ زمن أصبحت فيه هذه البطريركيات خمساً . وقـد تتعدّد هذه البطريركيات وتتكاثر فيصار بموجب التقليد الرسولي الى الاعتراف بأعمدة ثلاثـة كالاعمدة بطرس ويعقوب ويوحنا . فحيث يجتمع اثنان او ثلاثة باسمه يكون هو بينهم . « وان لم يسمع لـك اخوك فخذ معك واحداً او اثنين لكي تقوم على فم شاهدين او ثلاثـة كل كلمة » (متى ١٨ : ١٦) و (الثانية الى اهل كورنثوس ١٣ : ١) .

ولا ميزة لبطرس وخلفائه ، على ضوء ما تقدم ، اكثر مما ذكر . فالسيد لم يجعل هـذه السلطة فردية كما اوضحنا ولم يوجه لبطرس نفخة مختلفة . وفي انجيل يوحنا وفي الفصل الحادي والعشرين ما يدل على ان بطرس لم يعد الى سابق عهده قبل الظهور الثالث الذي جرى في ظبرية عندما كرر السيد السؤال « أتحبني اكثر من هؤلاء » ثلاث مرات ! وبالتالي فلا مجال للقول ان خلفاء بطرس هم وحدهم الاساس في السلطة او ان انسحابهم من المجموع البطريركي بعد السنة ١٠٥٤ عطل سلطة هذا المجموع .

ولم تكن هذه السلطة التي منحها السيد سلطة حق مشروع بل سلطة قوة وفاعلية . فالمسيح الاله لم يمنح الرسل حق الحل والربط اولا ثم القوة الالهية بل منح القوة اولا ثم اردف ذلك بقوله من غفرتم . ومن هنا الفرق بين حلول الروح

القدس في يوم الخمسين وبين ما تم والابواب مغلقة . فحلول الروح القدس يوم الخمسين تم لتحويل البشرية وتقديسها بالكنيسة اما النفخ الذي تم قبل صعود المسيح فانه نقل الى جماعة الرسل القوة الالهية البشرية الفعالة التي تجلت بالمسيح الاله .

ومما يلاحظ ايضاً ان هذه القوة الالهيـة البشرية الفعّالة منحت لجماعة الرسل مع حق كل فرد منهم ان يتذرع بها ويستعملها ما دام واحداً من الجماعة . فالمسيح الاله لم يقل مَن غفرتم له « مجتمعين » يغفر له ومن امكستم له « مجتمعين » يمسك له وانما اكتفى بالقول من غفرتم ومن أمسكتم . وبالتالي فان هـذه السلطة العليا تتجلى في كل كنيسة بما يعلمه ويفعله اسقفها . وحكم هذا الاسقف الفرد هو حكم جماعة الاساقفة . ومن هنـا قول كبريانوس ومجمع افريقية الى كنيسة رومة ان النعمة والقوة متوفرتان في افريقية بدون لجوء الى معونة من وراء البحر .

ولم يقل السيد من غفرتم لهـم ممن يؤمنون بي او ممن هم من خرافكم ورعاياكم بل من غرفتم لهم على وجه الاطلاق . وهكذا فان مـا منح شمل العالم والبشرية بأسرها . ومن هنا هذه الالقاب الكنيسة القديمة اسقف رومة واسقف الاسكندرية واسقف كل غالية وكل الشرق : فهؤلاء الاساقفة هم لجميع سكان هذه المناطق لا لفئة واحدة منهم .

ولم يحدد المسيح الاله هذه السلطة الرسولية ولم يقيدها بشيء فانه لم يقل من غفرتم لهم بموجب تعاليمي واوامري بل اطلق في القول فجعل سلطتهم مطلقة لا تقيدها شرائع او قوانين . وهـذا لا يعني انه أذن بالخروج على تعاليمه فانه ارسل بعد صعوده الروح القدس الذي يعلم ويذكر . وجل من هنالك ان هـذه السلطة الرسولية غير مقيدة بالقوانين وان هذه القوانين الكنسية معرضـة دائماً لاعادة النظر لان السلطة الرسولية سلطة مطلقة .

ولم يطلق السيد يد جماعة الرسل في تحديد البطل والحق والخطيئة والفضيلة فهذه مربوطة بالحقيقة التي فاه بها المسيح الاله مرة واحدة حتى انقضاء الدهر . فهو لم يقل ماتحكمون انه خطيئة فهو الخطيئة وما تحكمون انه الفضيلة فهو الفضيلة وانما قال افوضكم بالغفران والامساك. وبالتالي فالعصمة عندهم قانونية لاميتافيزقية، مرتبطة جوهراً بالكنيسة لا مستقلة عنها .

التقارب والتآلف قبل الاتحاد

لقد أزمن الداء وتعسر برؤه . ولكنه ليس من النوع الذي لا ينجع فيه دواء . والاتحاد هو في النهاية عمل الرؤساء . ولكن جمهور المؤمنين ليس بمعزل عن المسؤلية بل باستطاعتهم ان يؤثروا في حل المعضلة . فالاتحاد لا يصاغ صياغة ولا يفرض فرضاً وانما يكتشف اكتشافاً اذا عملنا على ايجاد الظروف الملائمة .

واول واجباتنا نحن المسيحيين في الشرق والغرب معاً ان نطلب الى الله بنفس منسحقة ان يقرب اليوم الذي يتحقق فيه هذا الاتحاد وان يعاوننا على التحلي بالمحبة المسيحية الحقيقية التي تتأنى وترفق ولا تحسد ولا تباهي ولا تنتفخ ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء بل تتغاضى عن كل شيء لاجل المسيح وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء .

ثم يجدر بنا ان نبدأ العمل لاجل الاتحاد باصلاح انفسنا . فالاتحاد فردي داخلي قبل ان يكون جماعياً ظاهرياً . فلنقدس نفوسنا ولنزينها بالفضيلة المسيحية. ومتى اصبحنا مسيحيين حقيقيين زال الجفاء والنفور وساد التعاون والاحترام .

والخطوة الثالثة في نظرنا هي خطوة تعارف وتآلف وتعاون . وهي ضرورية لازمة لان المفاهيم مختلفة والآراء متضاربة في كيفية تنظيم الكنيسة . فالارثوذكسي يقول بمساواة الرسل وبالتساوي بين خلفائهم ويرى السلطة في يد مجموع الاساقفة لا في يد اسقف واحد . والكاثوليكي يرى في حبر رومة اسقف الاساقفة . وهذه هي علة العلل . فاذا تعارفنا وتحاببنا باسم المسيح وله تعاونا في امور كثيرة وتوصلنا بنعمة الله الى الاعتدال في الرأي وخرجنا من المأزق بحل يرضي الجميع . فلا بد والحالة هذه من انهاء عهد الجفاء والتباعد والدخول في طور تعاون وتآلف .

ولنبدأ بتعليم صغارنا ما نتفق عليه قبل البحث معهم في وجوه الاختلاف .

والافضل في نظرنا الا نبحث مع الصغار في الاختلاف . ونحن نتفق في امور كثيرة مهمة . فانجيلنا واحد ورسائلنا واحدة وتقليد الآباء واحد ودستور الايمان واحد ورومة تجيز تلاوته كما اقره الآباء القديسون في المجمعين المسكونيين الاول والثاني . وجميعنا يعترف بقرارات مجامع مسكونية سبعة واحدة . وكلنا يمارس اسراراً واحدة (هي هي في الشرق وفي الغرب) ونسجد لجسد واحد ودم واحد . فلماذا لا نعلم صغارنا اننا متفقون في جميع هذه الامور . ولماذا لا نزال نصر على وجوه الخلاف دون اشارة واحدة الى مواطن الاتفاق .

فلو أخذنا كتاب التعليم المسيحي الذي طبع في مطبعة الآباء الفرنسيسيين في اوروشليم سنة ١٩٥٤ لوجدنا صاحبه الأب انطون عقليان الذي زاول التعليم زمناً طويلا يقول في الصفحة الثانية عشرة من هذا الكتاب « ان المسيحي الحقيقي هو الكاثوليكي لا غير » والمسيحيون غير الحقيقيين هم البروتستانت والهراطقة « والمنشقين » ويقول هذا المعلم نفسه في التعليق على انبثاق الروح القدس في الصفحة ٨٣ ان فوطيوس كان « مبدع الانشقاق » وهو لا يجد في الصفحة نفسها لفظاً يصف به عقيدة الكنيسة الارثوذكسية افضل من « الكذب » فيقول انها « عادت الى المعتقد الكاذب » . ثم يقيم البابا لاوون التاسع من قبره ليحرم الروم وينسى ان هذا البابا توفي قبل ان يعلم بما فعله كرديناله هومبرتو في القسطنطينية وانه لم يقم بعده حبر روماني واحد ثبّت هذا الحرم . ويبحث في الصفحة ٩٢ في الخارجين عن الكنيسة فيفرق بين الهراطقة والمنشقين ويؤكد ان الروم منشقون وهراطقة في آن واحد ويقول في الصفحة ٩٣ « ان اشهر انشقاق هو انشقاق الروم في القرن التاسع وان سببه الكبرياء وفساد القلب واحتقار سلطة الكنيسة العليا وان هذا من افظع الجرائم » ونقرأ في الصفحة ١٠٣ ان الكنيسة غير الكاثوليكية خالية من الوحدة « والقداسة » . يقول هذا الأب الكاهن كل هذا في كتابه في التعليم المسيحي ويعتقد في قرارة نفسه انه يخدم بذلك روح المحبة المسيحية واتحاد الجميع في المسيح ! فلو حذفنا هذه الامور جميعها من التعليم المسيحي (وهي خطأ اصلا) هل يفقد هذا التعليم صبغته المسيحية ؟ او ليس بالامكان ان نكون وضعيين على الاقل مع الصغار دون اللجوء الى التكريه والتبغيض؟ كأن نقول

انما نختلف عن الارثوذكسيين في انبثـاق الروح القدس وامر سلطة البابا وغير ذلك ولكننا نوافقهم في كذا وكذا .

ويجب علينا بعد هـذا ان نتبعد عن التشويق لطقس معين . فقد جربنا هذه الوسيلة وأخفقنا لا بل تباعدنا . وقد سبق لنا وقلنا في تضاعيف هذه الرسالة ان الجهود التي بذلتها رومة في القرنين الآخرين لاقامة كنائس شرقية كاثوليكية أدخلت البعض اليسير في الطاعـة ولكنها نفرّت المجموع الكبير وزادت الشقاق اتساعاً . ومما يجب الابتعاد عنـه ايضاً استغلال الظرف السياسي . وآخر مـا حدث من هذا القبيل هو تدخل السلطات الافرنسية المنتدبة في السنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ فيانتخـاب البطريرك الارثوذكسي الانطاكي وحض الأساقفة بشخص المسيوجينازدي مستشار الاديان في المفوضية الافرنسية على تقسيم الكنيسة الارثوذكسية الانطاكية الى كنيستين لبنانية وسورية وانتخاب « بطريركين » واحـد على لبنان والآخر على سورية ! ! فهل بهذه الاساليب ينشأ الاتحاد في المسيح ؟

وليس في موقف رومة الجديد من زواج الكاثوليكية من الارثوذكسي ما يقرّب القلوب ويمهد الطريق للاتحاد . فقد جرى منذ عامين ان أحبت شابة تنتمي الى احدى الطوائف الغربية رجلاً ارثوذكسياً في الثامنة والثلاثـين . وهي في السادسة والعشرين من عمرها مثقفة متعلمة وهو اديب لامع وله مكانته في المجتمع اللبناني . وتعارفا وتوافقا عن عقل وروية . فذهبت الشابـة الى اسقفها تطلب الرخصة بالزواج فقال ان زواجها من ارثوذكسي هو في حد ذاتـه زنى لا تجيزه الكنيسة فلما لم ترعو هدد بقطع جدها الكاهن ! فلماذا لا نعود الى ما كنا عليـه منذ مئتي عام فقط الى التآلف والتعاون والتزاوج والمحبـة . وهل يختلف اثنان في ان حادثاً واحداً من نوع ما تقدم يفسد عمل الف مبخر في سبيل الاتحاد !

والتعارف بالنشر العلمي الصحيح الناضج بالمحبة المسيحية ضروري جداً. فالواقع ان التباعد الذي دام تسعة قرون أدى الى الجهل . والجهل جفاء . فلا بد والحالة هذه من نشر حقيقة الارثوذكسية في الاوساط الكاثوليكية ونشر حقيقة

الكثلكة في الاوساط الارثوذكسية . وعلى الرغم من النهضة العلمية التاريخيـة المباركة التي أثارها البابا لاوون الثالث عشر بقوله ان الكنيسة لا تحتاج الا الاخذ باسباب الكذب والتلوي في الدفاع عن الحقيقة فان الاوساط الكاثوليكية العلمية لا تزال بعيدة عن فهم الارثوذكسية فهماً عميقاً كاملاً . فالأب مرتينوس جوجي استاذ اللاهوت الشرقي في رومة لا يزال يفترض افتراضات لا تتفق وواقع الحال كادعائه بأن الارثوذكسية تقول بقيصرية باباويـة على الرغم مما ظهر للعلماء الارثوذكسيين من مقالات ممتعة باللغات الغربيـة في هذا الموضوع . وقول الأب جوجي في كتابه الانشقاق اننا لا نفهم ما نصلي قول غريب في بابه ولا سيما وان صاحبه هو الاستاذ اللاهوتي الكبير وعلى يده نشأ بعض كهنة طوائفنا الغربيـة الذين أموا رومة للدرس والتخصص ! وتصميمه في كتابه « الانشقاق » على تحطيم الكنيسة الأرثوذكسية في كل سانحـة وبادرة وقلبه للحقائق التاريخية وتلاعبـه بدقائقها وتفاصيلها يزيل الثقة بأقوال الآباء الغربيين وينفر القلوب ويزيد الشقاق والانشقاق (١) . والأب ايف كونغار العالم العلامـة يستشهد بنصف ما نتلـو من الصلوات معرضاً عن النصف الآخر . فقد قال في كتابه « تسع مئة سنة بعد الانشقاق » انه بينما رومة تصلي لاجل اتحـاد الكنائس فان الارثوذكسيين يصلون لاجل ثباتها ! ونسي ان الطلبة المشار اليهـا تنص هكذا : من اجل ثبـات كنائس الله المقدسة « ووحدة الجميع » ! ولو مزج الأب كونغار هامش كتابه هذا بمتنه لكان اقرب بكثير الى الصحة والفائدة . فالهامش هو ما تجهلـه الاوساط الكاثوليكية الغربية لا المتن . واذا ما تم لنا التعارف العلمي الصحيح نقلنا ابحاثنا العلمية الى مفهوم الجماهير وتمكنا من وضع كتب في التعليم المسيحي لاجل الصغار والشباب تستعمل في المدارس الكاثوليكية والارثوذكسية في وقت واحد . ولعلّ هـذا كله يستوجب تطميناً من الفاتيكان وتشجيعاً . فبعض كهنتنا الكاثولكيين الشرقيين والغربيين اشد كثلكة من رومة نفسها .

1) *Jugie, M., Schisme Byzantin. (Paris, Lethielleux, 1941).*

وهنالك نصوص اساسية متفق عليها وقد رردت باليونانية اولا كالانجيل والرسائل ومصنفات معظم الآباء وقرارات المجامع المسكونية السبعة فـلا مجال لظهورها بالعربية مختلفة متفاوتة والتعاون في ضبطها امام لجنـة علمية كاثوليكية ارثوذكسية عليا امر ليس مستحيلا .

والاعمال الخيرية اعمال مسيحية قبل ان تكون كاثوليكية او ارثوذكسية. فلمَ لا نتعاون فيها بشكل « منتظم » يعود على الفقراء والمقعدين والمرضى بفائدة اكبر بكثير مما هي عليه الآن .

وليست هـــذه كلها سوى نماذج من العمل المسيحي المشترك الذي يجب التعاون فيــه لتنمية الشعور بالوحدة والاتحاد . والاتحاد واقع لا محالة لانه حق ولان المسيح يريده . فهنيئاً لمن يحيا ويرى ! وطوبى لمن يعمل ويسعى !

